الحجاج بن يوسف الثقفي

أعـــلام القـــادة

obeikandl.com

obeikandl.com

القائد الحجاج بن يوسف الثقفي

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة ابن أبي موسى وروى عنه أنس بن مالك وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم.

كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ توليّه ذلك فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك فقال للحجّاج: لم صنعت هذا فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرني في الذي وليّتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده.

قال الذهبي عنه: كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفّاكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عري الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[1].

- قال عنه ابن كثير: وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق،

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٤٣/٤.

وكان يغضب غضب الملوك، وكان - فيما يزعم - يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم، وقال:.. وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جداً لوجوه وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها وخفيَّات الصدور وضمائرها[1].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره إلى الله[2].

قال الشافعي: لمّا تزوج الحجّاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه في طلاقها فطلقَّها، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت

(١) البداية والنهاية، ١٢/٥١٠.
(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٥٩.

أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم، حتى قلت:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ::: خلخالاً يجول ولا قُلْبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني ::: تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حُبِّها ::: ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[1]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه، وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً. فقال: أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة، وحرمه من العطاء، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه[2].

ولعل أبرز جرائم الحجاج هو قتل سعيد بن جبير المقرئ المفسَّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث في حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع

(١) وفيات الأعيان، ٢/٢٢٤، ٢٢٥.
(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٣.

ابن عبَّاس، فلمّا عَمِيَ ابن عباس كتب وروي أنه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما وهكذا أبداً، وقيل كان أعلم التابعين بالطَّلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس وبالتفسير مجاهد وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير وقتله الحجّاج وما على وجه الأرض أحد إلاَّ وهو مفتقر إلى علمه، وقال الحسن يوم قتله: اللهمّ أَعِنْ على فاسق ثقيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبهم الله في النار، وعندما أمر الحجّاج بقتل سعيد قال سعيد: اللهم لا تحل له دمي ولا تُمهله من بعدي، وأصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولابن جبير.

لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحجّاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يُسرُّني أن لا أموت، وأنَّ لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له:{فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ } [الحجر: ٣٧]. فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:{وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ} [ص: ٣٥]. فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل كأنِّي والله بكل حيٍّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نُقِلَ في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصَّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يُقسِمُ الحبيب من ماله إن

الذين يعقلون. يعقلون ما أقول[١].

وكان موت الحجّاج بالأكلة[٢]، في بطنه، سوَّغه الطبيب لحماً في خيط فخرج مملوءاً دوداً وسُلط عليه أيضاً، البرد فكان يوقد النَّار تحته وتأجِّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسَّ بها، فشكا ما يجده إلى الحسن البصري - كما جاء في بعض الروايات - فقال له ألم أكن نهيتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يوماً فلما أُخبر الحَسَنُ بموته سجد شكراً، وقال: اللهمَّ كما أمته أمت سنته[٣].

وعن الأصمعي، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ::: بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ::: ما علمهم بعظيم العفو غفار

وقال عند موته: اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل، وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال: ما حسِدتُ الحجّاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبِّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله له حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل، ولما قيل للحسن البصري: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[٤]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمي يوم موته عرس العراق[٥].

(١) البداية والنهاية، ١٢/٥٩٤.
(٢) الأكلة: داء يقع في العضو فيأتكل منه.
(٣) شذرات الذهب،١/٣٨١،الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٦.
(٤) البداية والنهاية،١٢/ ٥٥٠.
(٥) المنتظم، ٤/٧.

قال العماد في سنة ٩٥هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين رمضان، وله ثلاث وقيل أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرْجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة[١].

ولما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد بن عبد الملك وجلس للعزاء فيه محزوناً عليه ومازال مهموماً حتى دخل عليه الفرزدق - الشاعر - فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد واقر عينه فقد قال:

لبيك على الإسلام من كان باكيا ::: على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملة لما أتاها نعيه ::: فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد ::: على مثله إلا نفوس الخلايف[٢]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيراً وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئاً وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزِّي، وقال الوليد: لأشفعن في الحجّاج عند الله، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم.

قال العلماء في موت الحجّاج:

عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مراراً، فلما تحقَّق وفاته قال:{فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾} [الأنعام: ٤٥].

(١) شذرات الذهب، ٣٧٧/١، البداية والنهاية، ٥٥٢/١٢.
(٢) العقد الفريد،١٩/٣، ديوان الفرزدق، صـ٢١٢.

ولما أخبر إبراهيم النخعي بموت الحجّاج بكى من الفرح، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكراً لله وقال اللهم أَمَتَّه، فأذهب عنا سنته، وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجداً حينما بلغه النبأ (١).

الحجاج بن يوسف الثقفي في ميزان أهل السنة والجماعة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلمٌ له أعمالٌ صالحةٌ في الظاهر - كالحجاج بن يوسف وأمثاله - أنهم لا يلعنون أحدًا منهم بعينه؛ بل يقولون كما قال الله تعالى:{أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ } [هود: ١٨]، فيلعنون من لعنه الله ورسوله عاما. كقوله ﷺ :«**لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها**» ولا يلعنون المعين.

كما ثبت في صحيح البخاري وغيره: " أن رجلاً كان يدعى حمارًا وكان يشرب الخمر. وكان النبي ﷺ يجلده. فأتي به مرةً. فلعنه رجلٌ. فقال النبي ﷺ :«**لا تلعنه. فإنه يحب الله ورسوله**».

وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد والوعيد العام لا يقطع به للشخص المعين لأحد الأسباب المذكورة: من توبةٍ أو حسناتٍ ماحيةٍ أو مصائب مكفرةٍ أو شفاعةٍ مقبولةٍ وغير ذلك.ا.هـ.

وممن امتنع عن لعنه الإمام أحمد رحمه الله.

---

(١) تاريخ البخاري ٢ / ٣٧٣، المعارف ٣٩٥ و٥٤٨، مروج الذهب ٣ / ٣٦٥، البدء والتاريخ ٦ / ٢٧، تاريخ ابن عساكر ٤ / ١٠٥ تاريخ ابن الأثير ٤ / ٥٨٣، تاريخ الإسلام ٣ / ٣٤٩، العبر ١ / ١١٢، سرح العيون ١٧٠، البداية والنهاية ٩ / ١١٧، تهذيب التهذيب ٢ / ٢١٠، لسان الميزان ٢ / ١٨٠، تعجيل المنفعة ٨٧، النجوم الزاهرة ١ / ٢٣٠ خلاصة تذهيب التهذيب ٧٣، شذرات الذهب ١ / ١٠٦، تهذيب ابن عساكر ٤ / ٥١، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٨.

- روى الخلال في " السنة " [1] بإسناده فقال: وأخبرني محمد بن علي قال: ثنا صالح أنه قال لأبيه: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره فيلعنه؟ قال: لا يعجبني لو عبر فقال: ألا لعنة الله على الظالمين، وروى عن ابن سيرين أنه قال: المسكين أبو محمد.

قال المحقق لـ " السنة ": إسناده صحيحٌ. وقال عن المقصود بأبي محمد: لعله يقصد الحجاج فكنيته أبو محمد.

والواجب على المسلم أن يجتنب اللعن، وألاَّ يعود لسانه عليه.

ولاشك أن في الأمة من أمثال الحجاج كثر، بل أشد منه..

وقد أدرك بعض الصحابة زمن إمارة الحجاج ومنهم ابن عمر، وأنس بن مالك، وعبد الله بن الزبير وكانوا يعرفون ما عند الرجل من ظلمٍ وجورٍ وسفكٍ للدماء ومع هذا لم يقولوا بكفر الحجاج.

عن سعيد بن جبيرٍ قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح في أخمص قدمه؛ فلزقت قدمه بالركاب؛ فنزلت فنزعتها وذلك بمنًى، فبلغ الحجاج، فجعل يعوده فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟ فقال ابن عمر: أنت أصبتني، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يومٍ لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم [2].

يتبين من هذين الحديث أن ما فعله الحجاج مع ابن عمر كان في الحج في منى، وسبب هذا الفعل من الحجاج ما جاء في الحديث الآخر.

وعن سالمٍ قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن لا يخالف ابن

---

(١) (٨٥١).
(٢) رواه البخاري (٩٦٦).

عمر في الحج فجاء ابن عمر ﷺ وأنا معه يوم عرفة حين زالت الشمس فصاح عند سرادق الحجاج، فخرج وعليه ملحفةٌ معصفرةٌ فقال: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: الرواح إن كنت تريد السنة، قال: هذه الساعة؟ قال: نعم؛ قال: فأنظرني حتى أفيض على رأسي ثم أخرج، فنزل حتى خرج الحجاج فسار بيني وبين أبي فقلت: إن كنت تريد السنة فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف؛ فجعل ينظر إلى عبد الله، فلما رأى ذلك عبد الله قال: صدق [1].

وفي فعل ابن عمر مع الحجاج فيما سبق أيضاً من الفوائد صلاة ابن عمر خلف الحجاج، وقد جاء مصرحاً به.

عن عمير بن هانىء قال: " شهدت ابن عمر والحجاج محاصرٌ ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء، وربما حضر الصلاة مع هؤلاء [2].

وعن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالكٍ فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ [3].

وبعد ذكر هذه النصوص عن الصحابة، وما وجدوه من الحجاج، فلم نجد من أحدهم أنه كفره، أو ألمح حتى إلى تكفيره، فلو ظهر لهم أدنى أمرٍ مكفرٍ من الحجاج لما ترددوا في تكفيره، لأن الصحابة لا يعهد عنهم كتمان الحق وبيانه.

وهذا سفيان الثوري حينما سئل عن الحجاج ماذا قال؟

قال رجلٌ لسفيان: أتشهد على الحجاج وأبي مسلم أنهما في النار؟

---

(١) رواه البخاري.

(٢) قال العلامة الألباني في " الإرواء " (٣٠٣/٢): وهذا سند صحيح على شرط الستة.

(٣) رواه البخاري (٧٠٦٨).

قال " لا؛ إذا أقرا بالتوحيد " [1].

والحقيقة التي لا يجب إغفالها لأن هناك كتاب ومؤرخين بالغوا في ذكر انتهاكات الحجاج لحرمات الدين، وأكثرها لا يصح، هذا إلى جانب دخول الدس من أعداء الحجاج وبني أمية في صياغة كثير من هذه المبالغات، وخاصة كتب الأدب كـ " العقد الفريد " لابن عبد ربه وكتاب " الأغاني " للأصفهاني والذي تتسم رواياته بسمةٍ شيعيةٍ واضحةٍ.

وهذا لا يعفي الحجاج من إقتراف الكثير من الجرائم والتجاوزات وفي مقدمة تجاوزات الحجاج الشرعية إسرافه في القتل، وهو المبيرٌ الذي أخبر عنه النبي ﷺ، ورؤيته في وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره في أي شأنٍ كبر أو صغر تبرر له القتل.

عن عاصمٍ قال سمعت الحجاج، وهو على المنبر، يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنويةٌ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنويةٌ لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من بابٍ من أبواب المسجد فخرجوا من بابٍ آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً، ويا عذيري من عبد هذيلٍ يزعم أن قراءته من عند الله، والله ما هي إلا رجزٌ من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه عليه السلام، وعذيري من هذه الحمراء يزعم أحدهم أنه يرمي بالحجر فيقول: إلى أن يقع الحجر قد حدث أمرٌ فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر قال: فذكرته للأعمش فقال: أنا والله سمعته منه [2].

(١) رواه اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة "، ٦/١١٥٠.
(٢) رواه أبو داود (٤٦٤٣)، وصححه العلامة الألباني في " صحيح سنن أبي داود "

قال ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " [1] عن استهانةِ الحجاجِ بالقتلِ: فإن الحجاجَ كان عثمانياً أموياً، يميلُ إليهم ميلاً عظيماً، ويرى أن خلافَهم كفرٌ، يستحلُ بذلك الدماءَ، ولا تأخذه في ذلك لومةُ لائمٍ.ا.هـ.

كما اتسم الحجاجُ بالجرأةُ والتطاول على الصحابةِ، وسوءُ نظرتهِ للعلماءِ، وتعاملهِ معهم، وقد رويت كلماتٌ شديدةٌ قالها الحجاجُ في حقِ الصحابي الجليلِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ أوردها الإمامُ ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " [2] فمن ذلك:

عن عاصم بن أبي النجود والأعمش، أنهما سمعا الحجاج - قبحه الله - يقول ذلك، وفيه: والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير[3].

٢ - عن الأعمش يقول: والله لقد سمعت الحجاج بن يوسف يقول: يا عجبا من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآنا من عند الله، واللهِ ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[4].

(٣٨٧٩)، ووردت آثارٌ بنفس المعنى في سنن أبي داود (٤٦٤٤، ٤٦٤٥)، وصححها العلامة الألباني أيضاً (٣٨٨٠، ٣٨٨١).

(١) (١٣١/٩).

(٢) (١٣٥/٩).

(٣) وفي سندِ هذه الروايةِ أبو هشام الرفاعي محمدُ بنُ يزيد. قال البخاري: رأيتهم مجمعين على ضعفه. وقال النسائي: ضعيف. وقال الترمذي: رأيتُ محمداً أبا هشام الرفاعي. وقال ابنُ حجر: ليس بالقوي.

(٤) رواه الحاكمُ في " المستدرك " (٥٥٦/٣)، وأورده ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " (١٣٥/٩)، ولم يعزه ابنُ كثيرٍ إلى الحاكمِ وإنما قال: " وفي بعض الروايات: والله لو

هذا على فرض ثبوت ما نقل عنه، وبعد التحققِ من أسانيدها لا يثبت منها شيء خلا كلامهِ على قراءةِ ابنِ مسعود ﷺ.

وبعد هذه النقولِ وبيان الأقوالِ يظهرُ أن الحجاجَ لم يكفرهُ أحدٌ من أهل العلمِ، وإنما هي أقوالٌ وردت عن بعضِ السلف لا يفهمُ منها التكفيرُ، ومن جاء عنه التكفير فقد تراجع عنه، وتاب من ذلك.

مواقف من حياته:

ورجائي لك الغداة عظيم :

ومن أخبار الحجاج بن يوسف أنه لما حضرته الوفاة وأيقن بالموت قال: أسندوني، وأذن للناس فدخلوا عليه فذكرت الموت وكربه واللحد ووحشته والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها وكثرة ذنوبه وأنشأ يقول:

إن ذنبي وزن السماوات والأرض ::: وظني بخالقي أن يحابي
فلئن من بالرضا فهو ظني ::: ولئن مر بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلما وهل ::: يظلم رب يرجى لحسن المآب

ثم بكى وبكى جلساؤه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان أما بعد: فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعي كل ممزق وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه وتكفيرا لما حمل من ذنوبه ثم كتب في آخر الكتاب:

إذا ما لقيت الله عني راضيا ::: فإن شفاء النفس فيما هنالك

أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه.ا.هـ. وفي سندها أحمد بن عبد الجبار العُطَارِدي. قال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال مُطَّين: كان يكذب. وقال ابنُ عدي: رأيتُ أهلَ العراقِ مُجمعين على ضعفه. وقال الذهبي: ضعفه غيرُ واحدٍ.

فحسبي بقاء الله من كـل ميـت ::: وحسبي حياة الله من كل هالـك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ::: ونحن نذوق الموت من بعد ذلـك
فإن مت فاذكرني بـذكر محبـب ::: فقد كان جما في رضاك مسـالكي
وإلا ففي دبـر الصـلاة بـدعوة ::: يلقى بها المسجون في نـار مالـك
عليـك سـلام الله حيـا وميتـا ::: ومن بعد ما تحيـا عتيقـا لمالـك

ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعي وقال: كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال:يا يعلى غما شديدا وجهدا جهيدا وألما مضيضا ونزعا جريضا وسفرا طويلا وزادا قليلا فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار! فقال له: يا حجاج إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فتبرتهم، وأطعت المخلوق في معصية الخالق، وهرقت الدماء وضربت الأبشار وهتكت الأستار وسست سياسة متكبر جبار لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان، وأذللت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك، فاليوم لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء، فالحمد لله الذي أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك، قال: فكأنما قطع لسانه عنه فلم يحر جوابا وتنفس الصعداء وخنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول:

رب إن العباد قد أيأسوني ورجائي لك الغداة عظيم [1]

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي في لغة العرب، ١٧٤/٣ - ١٧٥.

عزل الحجاج بن يوسف عن الحرمين:

قال عمران بن عد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين، بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة فلم يزل على حاله عنده، حتى خرج إلى عبد الملك زائراً له فخرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئاً، فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فدخل على عبد الملك فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له والله فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والديانة، ومن الستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة، مع القرابة ووجوب الحق: إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقد أحضرته بابك لتسهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما تفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه، فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريباً، يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل عليه قربه حتى أجلسه على فرشه، ثم قال له: يا ابن طلحة! إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدعن حاجة في خاص أمرك ولا عامته إلا ذكرتها، قال: يا أمير المؤمنين! إن أولى الأمور أن تفتتح بها حوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضا، ولحق نبيه ﷺ أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال، فأخلني ترد عليك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا بن طلحة نصيحتك، قال: الله أمير المؤمنين أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعترسه، وتعجرفه وبعده

عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من فيهما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي المنتسبة الأخيار، أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف، ويقودهم بالعسف، ويحكم فيهم بغير السنة، ويطؤهم بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق، ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك، وفيما بينك وبين رسول الله ﷺ يخلصك إذا جاثاك للخصومة في أمته، أما والله لا تنجو إلا بحجة تقيمن لك النجاة، فابق على نفسك أو دع، فقد قال رسول الله ﷺ: " كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته " فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً، فقال: كذبت - لعمرو الله - ومنت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك، وربما ظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقمت والله ما أبصر طريقاً، فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله، فقال للحاجب: احبس هذا، أدخل أبا محمد للحجاج، فلبثت ملياً لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن فقال: قم يا بن طلحة فادخل، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقني وقبل ما بين عيني، ثم قال: إذا جزى الله المتحابين بفضل تواصلهم فجازاك الله أفضل ما جزى به أخاً، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدمك، قال: فقلت: يهزأ بي، فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة لعل أحد من الناس شاركك في نصيحتك؛ قال: قلت: لا والله، ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج،ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو، ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه والمسلمين، فقال: قد علمت أنك آثرت الله عز وجل، ولو أردت الدنيا

لكان لك بالحجاج أمل، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً لهما، ووليته العراقين لما هنا من الأمور التي لا يرحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني إليك أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة[1].

أخارجي أنت؟ :

عن عبيد الله بن محمد التيمي، قال: أتي الحجاج برجل متهم برأي الخوارج، فقال له الحجاج: أخارجي أنت؟ قال: لا والذي أنت بين يديه غدا أذل مني بين يديك اليوم ما أنا بخارجي، فقال الحجاج: إني يومئذ لذليل. وأطلقه.

مال من يأخذ؟

ولى الحجاج رجلاً من الأعراب بعض المياه، فكسر عليه بعض خراجه فأحضره ثم قال له: يا عدو الله! أخذت مال الله، قال: فمال من آخذ؟ أنا والله مع الشيطان منذ أربعين سنة أن يعطيني حبة ما أعطاني.

جزاء الإحسان:

عن عوانة، قال: أتى الحجاج بأسارى من أصحاب قطري من الخوارج فقتلهم إلا واحداً، كانت له عنده يد وكان قريباً لقطري، فأحسن إليه وخلى سبيله، فصار إلى قطري فقال له قطري: عاود قتال عدو الله الحجاج، فقال هيهات، غل يداً مطلقها واسترق رقبةً

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ١٤.

معتقها، ثم قال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ::: بيد تقر بأنها مولاته
إني إذاً لأخو الدناءة والذي ::: طمت على إحسانه جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ::: في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار علي لا، إني إذاً ::: لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام أن صنائعاً ::: غرست لديّ فحنظلت نخلاته
هذا وما ظني بحين أنني ::: فكيم لمطرقُ مشهدٍ وعلاته[1]

ليلى الأخيلية ووفودها على الحجاج:

عن أبي الحسن المدائني، عمن حدثه، عن مولى لعنبسة ابن سعيد ابن العاص، قال: كنت أدخل مع عنبسة إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً ودخلت إليهما وليس عند الحجاج أحد غير عنبسة، فقعدت فجيء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني، ثم جاء بطبق آخر فأتاني الخادم منه بشيء، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يؤتون بشيء إلا جاءني منه بشيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم، ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه فنظرت إليها فإذا امرأة قد أسنت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى! ما أتاني بك؟ قالت: إخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد، فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: مغبرة والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والمال القُلّ، والناس مُسنتون، رحمة الله يرجون، وأصابتنا

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٢٢.

سنون مجحفة مبلطة، لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال، ثم قالت: قد قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال ::: منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العداة مناهم ::: ولا الله يعطي للعداة مناها
ذا هبط الحجاج أرضاً مريضة ::: تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ::: غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله ::: دماء رجال حيث قال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة ::: أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية ::: بأيدي رجال يحلبون صراها
فما ولد الأبكار والعون مثله ::: ببحر ولا أرض يجف ثراها

قال: فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً، ثم التفت إليها، فقال: حسبك، فقالت: قد قلت أكثر من هذا، قال: حسبك ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام! اذهب بها إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، قال: فأمر بإحضار الحجام، والتفتت إليه وقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال، إنما أمرك أن تقطع لساني بالبر والصلة فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانه، وقال: اردها، فلما دخلت عليه، قالت: كاد - وأمانة الله - أيها الأمير يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد ::: إلا الخليفة والمستغفر الصمدُ
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت ::: وأنت للناس نور في الدجى يقدُ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه، فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا

والله أيها الأمير، إلا أننا لم نر امرأة قط أفصح لساناً ولا أحسن محاضرة، ولا أصبح وجهاً ولا أرصن شعراً منها، فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها، فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة، فقالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ::: وقامت على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها ::: وجاد لها دمع من العين سافحُ
وأغبط من ليلى، بما لاً أنالهُ ::: بلى كل ما قرت به العين صالح
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ::: علي وفوقي تربة وصفائحُ
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ::: إليها صدىً من جانب القبر صائحُ

فقال لها: زيدينا يا ليلى من شعره، فقال: نعم، هو الذي يقول:

حمامة بطن الواديين ترنمي ::: سقاك من الغر الغوادي مطيرُها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ::: ولا زلت في خضراء دان نضيرها
وأشرف بالقوز اليفاع لعلني ::: أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ::: فقد رابني منها الغداة سفورها
يقول رجال لا يضيرك نأيها ::: بلى كل ما شف النفوس يضيرها
بلى قد يضير العين أن تكثر البك ::: ى يمنع منها نومها وسرورها
وقد زعمت ليلى بأني فاجرٌ ::: لنفسي تقاها أو عليها فجورها

فقال الحجاج: يا ليلى! ما الذي رابه من سفورك؟ قالت: أيها الأمير! كان يلم بي كثيراً فأرسل إلي يوماً: أني آتيك، ففطن الحي فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع، فقال: لله درك! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ قال: لا، والله الذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال لي مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت أقول:

وذي حاجــة قلنــا لا تــبح بهــا ::: فليس إليها مــا حييــت ســبيلُ
لنا صاحب لا نبتغــي أن نخونــه ::: وأنتَ لأخرى صــاحب وخليــلُ

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً قد فرق الموت بيني وبينه، قال: ثم مه، قالت: ثم إنه لم يلبث أن خرج في غزاةٍ له فأوصى ابن عمه: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هــل أبــيتن ليلــةً ::: من الدهر لا يســري إلي خيالهــا

فخرج وأنا أقول:

وعنه عفــا ربي وأحســن حالــهُ ::: فغــز علينــا حاجــةً لا ينالُهــا

قال: ثم مه، قالت: ثم لم يلبث أن مات فأتى نعيه، قال: فأنشدينا بعض مراثيك فيه، فأنشدته:

كأن فتى الفتيــان توبــة لم يــنخ ::: قلائص يفحصن الحصى بالكراكر
ليبك العذارى من خفاجة نســوة ::: بمــاء شــئون العــبرة المتحــادر

فلما فرغت من القصيدة، قال محصن الفقعسي، وكان من جلساء الحجاج: من الذي يقول هذه هذا فيه، فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه ثم قالت: والله أيها الأمير إن هذا القائل لي لو رأى توبة لسَرَّه ألا يكون في داره عذراء وهي حامل منه، فقال له الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنياً، ثم قال لها: سلي يا ليلى تعطي، قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون قالت زد فمثلك زاده فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد فأفضل، قال: لك ستون قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد فمثلك زاد فتمم، قال: لك مائة، واعلمي يا ليلى أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً، قال: فما هي ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة ناقة برعاتها، فأمر لها

بها، ثم قال: لك حاجة بعدها، قالت: تدفع إلي النابغة الجعدي في قيد، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك بن مروان فاتبعته فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فماتت بقومس ويقال بحلوان(١).

الحجاج وفراشة التي كانت تجهز الخوارج:

عن العتبي، قال: كانت امرأة من الخوارج من الأزد يقال لها فراشة، وكانت ذات نبهٍ في رأي الخوارج تجهز أصحاب البصائر منهم، وكان الحجاج يطلبها طلباً شديداً، فأعوزته فلم يظفر بها، وكان يدعو الله أن يمكنه من فراشة أو من بعض من جهزته، فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقال: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً ثم رفع رأسه، فقال له: يا عدو الله، قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث. قال: أين تطير؟ قال: تطير ما بين السماء والأرض، قال: أعن تلك سألتك عليك لعنة الله؟ قال: عن تلك أخبرتك عليك غضب الله، قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: دلنا عليها، قال: تصنع بها ماذا؟ قال: أضرب عنقها. قال: ويلك يا حجاج، ما أجهلك! تريد أن أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله؟ قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذاك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين، قال: ولم لا أم لك؟ قال: إنه أخطأ خطيئة طبقت بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعماله إياك على رقاب المسلمين، فقال الحجاج لجلسائه: ما رأيكم فيه؟ قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد، قال: ويلك يا حجاج،

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٧ - ٤٩.

جلساء أخيك كانوا أحسن مجالسة من جلسائك، قال: وأي أخوي تريد؟ قال: فرعون حين شاور موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وأشار عليك هؤلاء بقتلي، قال: وهل حفظت القرآن؟ قال: وهل خشيت فراره فأحفظه؟ قال: هل جمعت القرآن؟ قال: ما كان متفرقاً فأجمعه، قال: أقرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه، فقال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعملي وتلقاه بدمي، قال: إذاً أعجلك إلى النار، قال: لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ خلافك ومناقضتك، قال: إني قاتلك، قال: إذاً أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك، قال: نقمعك عن الكلام السيئ، يا حِرسي! اضرب عنقه، وأومى إلى السياف إلا يقتله، فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك عليه رشح جبينه، قال: جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق، ولكن أبطأت علي بما لي فيه راحة، قال: يا حرسي أعظم جرحه، فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله، ووالله ما أتمها ورأسه في الأرض[1].

خبر الغضبان بن القبعثري مع الحجاج:

قال أحمد بن عبيد بن ناصح: حدثت أن الحجاج بن يوسف بعث الغضبان بن القبعثري ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو بكرمان، وبعث عليه عيناً وكان كذلك يفعل، فلما انتهى الغضبان إلى عبد الرحمن قال له: ما وراءك؟ قال: شر، تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك، وانصرف الغضبان فنزل رملة كرمان وهي أرض شديدة الرمضاء، فبينا هو كذلك إذ ورد عليه أعرابي من بني بكر بن وائل على فرس له يقود ناقة، فقال: السلام عليك، قال

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٧٦ - ٧٧.

الغضبان: السلام كثير وهي كلمة مقولة، قال الأعرابي: ما اسمك؟ قال: آخذ. قال: أفتعطي؟ قال: لا أحب أن يكون لي اسمان، قال: من أين أقبلت؟ قال: من الذلول، قال: وأين تريد؟ قال: المشي في مناكبها، قال: من عرض اليوم؟ قال: عرض المتقون. قال: فمن سبق؟ قال الفائزون، قال: فمن غلب؟ قال: حزب الله، قال: فمن حزب الله؟ قال: هم الغالبون، قال: فعجب الأعرابي من منطقه، قال: أما تقرض؟ قال: إنما تقرض الفأرة، قال: أتسمع؟ قال: إنما تسمع القينة، قال: أفتنشد؟ قال: إنما تنشد الضالة، قال: أفتقول؟ قال: إنما يقول الأمير، قال: أفتتكلم؟ قال: كل متكلم، قال: أفتنطق؟ قال: إنما ينطق كتاب الله، قال: أتسمع؟ قال: حدثني أسمع، قال: أفتسجع؟ قال: قال إنما تسجع الحمامة، قال الأعرابي: تالله ما رأيت كاليوم قط، قال: بلى ولكنك نسيت، قال الأعرابي: فكيف أقول؟ قال: لا أدري والله، قال الأعرابي: كيف ترى فرسي هذه؟ قال الغضبان: هو خير من آخر شر منه وآخر خير منه أفره منه، قال الأعرابي: إني قد علمت ذلك، قال: لو علمت لم تسألني، قال، قال الأعرابي: إنك لمنكر، قال الغضبان: إنك لمعروف. قال: ليس ذاك أريد، قال: فما تريد؟ قال: أردت إنك لعاقل قال: أفتعقل بعيرك هذا؟ قال الأعرابي: أفتأذن لي فأدخل عليك؟ قال الغضبان: وراؤك أوسع لك، قال الأعرابي: قد أحرقتني الشمس، قال: الساعة يفيء عليك الفيء، قال الأعرابي: إن الرمضاء قد آذتني، قال: بل على قدميك، قال قد أوجعني الحر، قال الغضبان: ما لي عليه سلطان، قال الأعرابي: إني لا أريد طعامك ولا شرابك، قال: لا تعرض بهما فوالله لا تذوقهما، قال الأعرابي: سبحان الله، قال: من قبل أن تطلع رأسك، قال الأعرابي: أما عندك إلا ما أرى؟ قال: بلى، هراوتان أضرب بهما

رأسك، فقال الأعرابي: الله، قال: ظلمك أحد؟ فلما رأى الأعرابي ذلك قال: إني لأظنك مجنوناً، قال الغضبان: اللهم اجعلني ممن يرغب إليك، قال: إني لأظنك حرورياً، قال: اللهم اجعلني ممن يتخير الخير، ثم قال: له الغضبان: أهذا بعيرك يا أعرابي؟ قال: نعم: فما شأنه؟ أرى فيه داء فله أنت بائعه ومشتر ما هو شر منه، فولى الأعرابي وهو يقول: والله إنك لمرح أحمق. فلما قدم الغضبان على الحجاج قال: كيف تركت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير، أرض ماؤها وشل، وثمرها دقل ولصها بطل، فالجيش فيها ضعاف، إن كثروا فيها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا، فقال الحجاج له: أما إنك صاحب الكلمة التي بلغتني عنك حين قلت تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك؟ قال الغضبان: أما إنها - جعلني الله فداءك - لم تنفع من قيلت له، ولا تضر من قيلت فيه، فأمر الحجاج به إلى السجن، فلما ذهب مكث فيه حتى إذا بنى الحجاج خضراء واسط أعجبته كما لم يعجبه بناء قط فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير، ما بنى ملك قط مثلها، وما نعلم للعرب مأثرة أفضل منها، قال الحجاج: أما إن لها عيباً، سأبعث إلى من يخبرني به فبعث إلى الغضبان فأقبل يرسف في قيده، فلما دخل عليه سلم، فقال الحجاج: كيف ترى قبتي هذه؟ قال: أصلح الله الأمير هذه قبة بنيت في غير بلدك لغير ولدك، لا يسكنها وارثك ولا يدوم لك بقاؤها كما لم يئيم هالك ولم يبق فان، وأما هي فكأن لم تكن، قال: صدقت، ردوه إلى السجن فإنه صاحب الكلمة التي بلغتني عنه، قال: أصلح الله الأمير، ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، قال: أتراك تنجو مني لأقطعن يديك ورجليك ولأكوين عينيك، قال: ما يخاف وعيدك البريء ولا ينقطع منك رجاء المسيء، قال: لأقتلنك إن شاء الله، قال: بغير نفس، والعفو

أقرب للتقوى، قال له الحجاج: إنك لسمين، قال: لمكان القيد والرتعة ومن يكن جار الأمير يسمن. قال الحجاج ردوه إلى السجن، قال: أصلح الله الأمير قد أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال: " سبحان الذي يخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "،قال: أنزلوه أخزاه الله، قال:{أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾} [المؤمنون: ٢٩]، قال: جروه أخزاه الله، قال:{بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [هود: ٤١]، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه. أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال:؟؟؟ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "،قال: أنزلوه أخزاه الله، قال:{رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} [المؤمنون: ٢٩]، قال: جروه أخزاه الله، قال:{بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [هود: ٤١]، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه(١).

عبد الملك ورد الحجاج عليه:

قال أبو عبيدة: لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق قدم قيساً واتسع له في إنفاق الأموال، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما لا ينفق أمير المؤمنين في الأسبوع، وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر، عليك بتقوى الله في الأمر كله وكن لوعيده تخشى وتضرع، ووفر خراج المسلمين وفيأهم، وكن لهم حصناً يجير ويمنع، فكتب إليه الحجاج:

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم ::: قراطيس تملي ثم تطوى فتطبع
كتاب أتاني فيه لين وغلظة ::: وذكرت والذكرى لذي اللب تنفع

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٨٢.

وكانت أمـــور تعتـــريني كـــثيرة ::: فأرضخ أو أعتـــل حينـــاً فـــأمنع
إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم ::: ولم يك عندي في المنـــافع مطمـــع
أيرضى بذاك الناس أم يســـخطونه ::: أم أحمـــد فـــيهم أم ألام فأقـــدع
وكانت بلاداً جئتها حيث جئتـــها ::: بها كل نـــيران العـــداوة تلمـــع
فقاسيت فيها ما علمـــت ولم أزل ::: أصارع حتى كدت بالموت أصرع
فكم أرجفوا من رجفة قد سمعتـــها ::: ولو كان غيري طار ممـــا يـــروع
وكنت إذا هموا بإحـــدى هنـــاتهم ::: حسرت لهـــم رأســـي ولا أتقنـــع
فلو لم يذد عني صـــناديد منـــهم ::: تقسم أعضـــائي ذئـــاب وأضـــبع

فكتب إليه عبد الملك: اعمل برأيك[1].

الحجاج يؤمن الناس إلا أربعة:

عن عبيد الله بن عبد الله بن فضالة الزهراني، قال: نادى منادي الحجاج بن يوسف يوم رستقا باذ: آمن الناس كلهم إلا أربعة: عبد الله ابن الجارود وعبد الله بن فضالة وعكرمة بن ربعي وعبد الله بن زياد بن ظبيان، قال: فأتى برأس عبد الله بن الجارود فلم يصدق فرحاً به، وقال: عمموه لي أعرفه فإني لم أره قط إلا معمماً فعمم له فعرفه، فأمر المنادي فنادى: أمن الناس إلا ثلاثة: عبد الله بن فضالة وعبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي، فأما عبيد الله بن زياد فإنه انطلق إلى عمان فأصابه الفالج بها فمات، وأما عكرمة بن ربعي فإنه لحقته خيل الحجاج في بعض سكك المربد فعطف عليهم فقتل منهم نيفاً وعشرين رجلاً ثم قتلوه، وأما عبد الله بن فضالة فإنه أتى خراسان فلم يزل بها حتى ولي المهلب خراسان فأمر بأخذه حيث أصابه، وقيل له: أكن ذلك ولا تبده فيحذر ويحرز فاحرص على أسره دون قتله، قال: فبعث المهلب ابنه حبيباً أمامه فساق من سوق

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٨٢.

الأهواز إلى مرو على بغلة شهباء في سبع عشرة ليلة فأخذه غارا بمرور وهو لا يشعر، ثم كتب إلى الحجاج يعلمه ذلك، فجاء المغيرة بن المهلب إلى منزل حبة ابنة الفضل، امرأة عبد الله بن فضالة وهي ابنة عم عبد الله، فأرسل إليها أن حبيباً قد أخذ عبد الله، وقد كتب إلى الحجاج يعلمه بذلك، فإن كان عندك خير فشأنك وعولي علي من المال ما بدا لك، فأرسلت إليه: لا ولا كرامة، تقتلونه وآخذ منكم المال، هذا ما لا يكون، فتحولت إلى منزل أخيها لأمها خولى بن مالك الراسبي وأرسلت إلى بني سعد فاشترى لها باب عظيم وألقته على الخندق ليلاً ثم جازت عليه فغشي عليها، فلما أفاقت قالت: إني لم أكن أتعب، فمتى أصابني هذا فشدوني وثاقاً ثم سيروا بي، فخرجت مع خادمها وغلامها ودليلها، لا يعلم بها أحد، فسارت حتى دخلت دمشق على عبد الملك بن مروان، فأتت أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت أمها بنت ذؤيب بن حلحلة الخزاعي، قالت: يا أم أيوب قصدتك لمر بهظني وغم كظمني وأعلمتها الخبر وقصت عليها القصة، فقالت أم أيوب: قد:كنت أسمع أمير المؤمنين يكثر ذكر صاحبك ويظهر التلظي عليه، قالت: وأين رحلتي إليك؟ قالت: سأدخلك مدخلاً وأجلسك مجلساً إن شفعت ففيه، وإن رددت فلا تنصبي، فلا شفاعة لك بعده فأجلستها في مجلسها الذي كانت تجلس فيه لدخول عبد الملك ليلاً، وجلست أم أيوب قريباً منها فقالت لها: إذا دخل فشأنك، فدخل عبد الملك ليلاً مغتراً، فلما دنا أخذت بجانب ثوبه ثم قالت: هذا مكان العائذ بك يا أمير المؤمنين، ففزع عبد الملك وأنكر الكلام، فقالت أم أيوب: ما يفزعك يا أمير المؤمنين من كرامة ساقها الله عز وجل إليك! فقال:عذت معاذاً، فمن أنت؟ قالت: تؤمن يا أمير المؤمنين من جئتك فيه من كان من خلق الله تعالى ممن تعرف

أو لا تعرف، ممن عظم ذنبه لديك أو صغر شامياً أو عراقياً أو غير ذلك من الآفاق؟ قال: نعم، هو آمن، قالت:بأمان الله عز وجل ثم أمانك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فمن هو أيتها المرأة؟ قالت: عبد الله بن فضالة، قال: أرسلي ثوبي أنبئك عنه، قالت: أغدراً يا بني مروان؟ قال: لا، أرسلي ثوبي أحدثك ببلائك عنده، وهو أمن لك ولمعاذك قالت: فحدثني يا أمير المؤمنين ببلائك عنده، قال: ألم تعلمي أني وليته السوس وجندي سابور وأقطعته كذا وكذا وفرضت له كذا ونوهت بذكره ورفعت من قدره؟ قالت: بلى والله يا أمير المؤمنين، أفلا أحدثك ببلائه عندك؟ قال: بلى، قالت: أتعلم يا أمير المؤمنين أن داره هدمت ثلاث مرات بسببك لا يستتر من السماء بشيء، قال: نعم، قالت: أفتعلم يا أمير المؤمنين أنك كتبت إلى وجوه أهل البصرة وأشرافها وكتبت إليه فلم يكن منهم أحد أجابك ولا أطاعك غيره، قال: نعم قالت: أفتعلم أنه كان قبل زلته سيفاً لك على أعدائك وسلماً وبساطاً لأوليائك قال: نعم، حسبك قد أجبت وأبلغت، قالت: أفيذهب يوم من إساءته بصالح أيامه وطاعته وحسن بلائه، قال: لا، هو آمن، قالت: يا أمير المؤمنين إنه الدما وإنه الحجاج وإنه إن رآه قتله، قال: كلا، قالت: فالكتاب مع البريد يا أمير المؤمنين، قال: فكتب لها كتاباً مؤكداً: إياك وإياه أحسن جائزته ورفده وخل سبيله، ثم وجه به مع البريد، ثم أقبل عليها فقال:ما أنت منه؟ قالت: امرأته وابنة عمه، قال: فضحك وقال: أين نشأت، قالت: في حجر أبيه، قال: فوالله لأنت أعرب منه وأفصح لساناً، فهل معه غيرك؟ قالت:نعم، ابنة عبيد بن كلاب، قال: النميري قالت: نعم، وكذا وكذا جارية، قال: فأنا أوليك طلاقها وعتق جواريه، قالت: بل تهنيه نساءه كما هنأته دمه، فأقبل على أم أيوب فقال لها: يا أم أيوب لا نساء إلا بنات العم. ثم قال:

أقيمي عند أم أيوب حتى يأتيك الكتاب بمحبتك إن شاء الله، وقدم الكتاب وقد قدم به على الحجاج من خراسان، فأقامه للناس في سراويل وقد كان نزع ثيابه قبل ذلك وعرضه على الناس في الحديد ليعرفوه، فلما أمسى دعا به الحجاج فقال له عبد الله: أتأذن لي في الكلام؟ قال: لا كلام سائر اليوم، قال: فكساه وحمله وأجازه وخلى سبيله، وانصرف إلى أهله فسألهم عن حبة، فأخبر بأمرها وقيل له: ما ندري أين توجهت، ثم بلغه ما صنعت، فكتب إليها: إنك قد صنعت ما لم تصنع أنثى فأعلميني بمقدمك أتلقاك ويتلقاك الناس معي، فلم تعلمه حتى قدمت ليلاً وهو عند ابنة عبيد بن كلاب، فقالت: لا والله لا يؤذن بي الليلة، فلما أصبح، أخبر بمكانها فأتاها[1].

الوليد يوافق الحجاج على عسفه بآل المهلب:

قال الأصمعي: كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يذكر عسفه آل المهلب ومطالبته إياهم بما اختانوا من الأموال، فوقع في كتابه بخطه: ليس للخائن حرمة تبعث الأحرار عن ترفيههم، فإياك وتضييع حق قد وجب، وأمانة مال خطير يزين الدولة ويحصن الخلافة، ويؤخذ من خائن لم يشكر عليه، ويدفع إلى ناصح يحتاج إليه، فلما قرأ الحجاج كتابه أنشأ يقول متمثلاً بشعر من بني كلاب:

وإني لصوان لنفسي وإنني ::: على الهول أحياناً بها لرحوم
وإني لأزري في خلال كثيرة ::: على المرء أن يختال وهو لئيم[2]

نتيجة الرفق ونتيجة التعذيب:

عن أبي المضرحي، قال: أمر الحجاج محمد بن المنتشر بن أخي مسروق بن الأجدع أن يعذب أزداد مرذ بن الهربز، فقال أزداد مرذ:

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٨٧ - ٨٨.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١١١.

يا محمد! إن لك شرفاً قديماً، وإن مثلي لا يعطى على الذل شيئاً، فاستأد وارفق بي، فاستأدى في جمعة ثلاثمائة ألف، فغضب الحجاج وأمر معبداً صاحب العذاب أن يعذبه فدق يديه ورجليه فلم يعطهم شيئاً، قال: فإني لأسير بعد ثلاثة أيام إذ أنا بأزداد مرذ معترضاً على بغل قد دقت يداه ورجلاه، فقال: يا محمد! فكرهت أن آتيه فيبلغ الحجاج، وتذممت من تركه إذ دعاني، فدنوت منه فقتل: حاجتك؟ فقال: إنك قد وليت مني مثل هذا فأحسنت إلي، ولي عند فلانة مائة ألف درهم، فانطلق فخذها، فقلت: لا والله لا آخذ درهماً وأنت على هذه الحال، قال: فإني أحدثك حديثاً سمعته من أهل دينك، يقولون: إذا أراد الله بالعباد خيراً أمطرهم في أوانه، واستعمل عليهم خيارهم، وجعل المال عند سمحائهم، وإذا أراد بهم شراً أمطروا في غير أوانه، واستعمل عليهم شرارهم، وجعل المال في أشحائهم. ومضى وأتيت منزلي فما وضعت ثيابي حتى جاءني رسول الحجاج، فأتيته وقد اخترط سيفه فهو في حجره، فقال: ادنُ، فدنوت قليلاً، ثم قال: ادن، فقلت: ليس بي دنو، وفي حجر الأمير ما أرى، فأضحكه الله تعالى لي وأغمد السيف فقال: ما قال لك الخبيث، فقلت: والله ما غششتك منذ استنصحتني، ولا كذبتك مذ صدقتني، ولا خنتك منذ ائتمنتني، وأخبرته بما قال: فلما أردت ذكر الرجل الذي عنده المال صرف وجهه، وقال لا تسمه، ثم قال: لقد سمع عدو الله الأحاديث[1].

يصارح الحجاج برأيه في أخيه:

قال محمد بن الحسن بن دريد: بلغني أن طاوساً كان يقول: بينا أنا جالس مع الحجاج بمكة إذ مر رجل يلبي حول البيت، فرفع صوته بالتلبية، فقال الحجاج: علي بالرجل، فأتي به، قال: ممن

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٢٣.

الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت، قال: عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ قال: تركته عظيماً جسيماً، ركاباً خراجاً ولاجاً، قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت؟ قال: عن سيرته؟ قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق، قال: فما الذي حملك علي بهذا فيه، وأنت تعرف مكانه مني؟ قال: أتراه مكانه منك أعز بمكاني من الله عز وجل وأنا قاضي دينه، ووافد بيته، ومصدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فسكت الحجاج فما أحار جواباً، وقام الرجل فدخل الطواف.

فاتبعته فإذا هو في الملتزم، وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك، اللهم فاجعل لي في الكهف إلى جودك، والرضا بضمانك، مندوحةً عمن سواك الباخلين، وغنىً عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فلما كان عشية عرفة، رأيته واقفاً على الموقف فدنوت منه، فسمعته يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني الأجر على مصيبتي بتركك القبول مني، قال: فلما كان غداة جمعٍ أفاض مع الناس، فسمعته يقول: يا سوءتاه منك يا رب وإن غفرت.

ثم لم أره بعد ذلك[1].

الحجاج يكثر الخير في البيوت:

عن الهيثم بن الربيع، قال: قال الحجاج: إني لا أرى الناس قد قلوا على موائدي فما بالهم؟ فقال له رجل من عرض الناس: أصلح الله الأمير، إنك أكثرت خير البيوت فقل غشيان الناس لطعامك، فقال:

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٣٦.

الحمد لله وبارك الله عليك، من أنت؟ قال: أنا الصلت بن قران العبدي، فأحسن إليه[1].

علمته الحياة:

عن الأصمعي، قال: مثل فتى بين يدي الحجاج، فقال: أصلح الله الأمير، مات أبي وأنا حملٌ، وماتت أمي وأنا رضيع، فكفلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي فاجتاحه، وهو هاربٌ مني ومن عدل الأمير. فقال الحجاج: الله! مات أبوك وأنت حمل وماتت أمك وأنت رضيع وكفلك الغرباء، فلم يمنعك ذلك من أن فصح لسانك، وأنبأت عن إرادتك! اطردوا المؤدبين عن أولادي[2].

ويحك أُخبرته؟

أتى الحجاج برجلين من الخوارج، فقال لأحدهما: ما دينك؟ قال: دين إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال: يا حرسي! اضرب عنقه، ثم قال للآخر: أنت ما دينك؟ قال: دين الشيخ يوسف بن الحكم - يعني أبا الحجاج - قال: ويحك أخبرته؟ لقد كان صواماً قواماً، يا حرسي! خل عنه، فقال: ويحك يا حجاج! أشقيت نفسك واثمت بربك، قتلت رجلاً على دين إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى:{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ} [البقرة: ١٣٠]، فقال: أبيت، يا حرسي! اضرب عنقه، فانطلق به فأنشأ يقول:

سبحان رب قد يرى ويسمع ::: وقد مضى في علمه ما تصنع
ولو يشا في ساعةٍ بل أسرع ::: فيرسلن عليك ناراً تسطع
فيترك السرير منك بلقع

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٠١.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٠٧.

فضربت عنقه[1].

قصة جحدر اللص والحجاج والأسد:

عن أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي قال: بلغني أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له: جحدر بن مالك فتاكاً شجاعاً قد أغار على أهل حجرٍ وناحيتها، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله باليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به، ويأمره بالاجداد في طلبه والتجرد في أمره؛ فلما وصل الكتاب إليه أرسل إلى فتيةٍ من بني يربوع من بني حنظلة، فجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدراً أو أتوا به أسيراً، فانطلق الفتية حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا إليه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرز به، فاطمأن إليهم ووثق بهم، فلما أصابوا منه غرةً شدوه كتافاً وقدموا به على العامل، فوجه به معهم إلى الحجاج وكتب يثني عليهم خيراً، فلما أدخل على الحجاج قال له: من أنت؟ قال: أنا جحدر بن مالك، قال: ما حملك على ما كان منك؟ قال: جرأة الجنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، فقال له الحجاج: وما الذي بلغ منك فيجترى جنانك ويجفوك سلطانك ويكلب زمانك؟ قال: لو بلاني الأمير أكرمه الله لوجدني من صالح الأعوان وبهم والفرسان، ولوجدني من أنصح رعيته، وذلك أني مالقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدرًا، قال له الحجاج: إنا قاذفون بك في حائرٍ فيه أسد عاقر ضارٍ فإن هو قتلك كفانا مؤونتك، وإن أنت قتلته خلينا سبيلك؛ قال: أصلح الله الأمير، عظمت المنة، وأعطيت المنية، وقويت المحنة، فقال الحجاج: فإنا لسنا بتاركيك لتقاتله إلا وأنت مكبل بالحديد، فأمر به الحجاج فغلت يمينه إلى عنقه وأرسل به إلى السجن. فقال جحدر لبعض من يخرج إلى اليمامة: تحمل عني شعراً،

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٢١.

وأنشأ يقول:

ألا قد هاجني فازددت شوقاً ::: بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي ::: على غصنين من غرب وبان
فقلت لصاحبي وكنت أحزو ::: ببعض الطير ماذا تحزوان
فقالا الدار جامعة قريب ::: فقلت بل انتما متمنيان
فكان البان أن بانت سليمى ::: وفي الغرب اغتراب غير داني
ألـيس الليل يجمع أم عمرو ::: وإيانا فذاك بنا تداني
بلى وترى الهلال كما نراه ::: ويعلوها النهار إذا علاني
إذا جاوزتما نخلات حجرٍ ::: وأودية اليمامة فانعياني
وقولا جحدر أمسى رهيناً ::: يحاذر وقع مصقول يماني

قال: وكتب الحجاج إلى عامله بكسكر أن يوجه إليه بأسدٍ ضارٍ عاتٍ ويجر على عجل؛ فلما ورد كتابه على العامل امتثل أمره، فلما ورد الأسد على الحجاج أمر به فجعل في حائرٍ وأجيع ثلاثة أيام، وأرسل إلى جحدر فأتي به من السجن ويده اليمنى مغلولة إلى عنقه، وأعطي سيفاً والحجاج وجلساؤه في منظرةٍ لهم، فلما نظر جحدر إلى الأسد أنشأ يقول:

ليث وليث في محلٍ ضنك ::: كلاهما ذو أنفٍ ومحك
وشدةٍ في نفسه وفتك ::: إن يكشف الله قناع الشك
أو ظفر بحاجتي ودركي ::: فهو أحق منزل بترك

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه، فلما صار منه على قدر رمح وثب وثبة شديدةً، فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربةً حتى خالط ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، وسقط جحدر على ظهره من شدة وثبة الأسد وموضع الكبول، فكبر الحجاج والناس جميعاً،وأنشأ جحدر يقول:

يا جمل إنك لو رأيت كريهتي ::: في يوم هولٍ مسدف [٣] وعجاج
وتقدمي لليث أرسف [١] موثقاً ::: كيما أثاوره على الإحراج
شن براثنه [٢] كأن نيوبه ::: زرق المعاول أو شباة [٤] زجاج
يسمو بناظرتين تحسب فيهما ::: لما أحدهما شعاع سراج
وكأنما خيطت عليه عباءة ::: برقاء [٥] أو خرق من الديباج
لعلمت أني ذو حفاظٍ ماجد ::: من نسل أقوام ذوي أبراج

ثم التفت إلى الحجاج فقال:

ولئن قصدت بي المنية عامداً ::: إني بخيرك بعد ذاك لراجي

ويروى: إني لخيرك يا ابن يوسف راج.

علم النساء بأنني لا أنثني ::: إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
وعلمت أني إن كرهت نزاله ::: أني من الحجاج لست بناج

فقال له الحجاج: إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك، قال: لا، بل اختار مجاورة الأمير، أكرمه الله. ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته [٦].

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها:

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج ابن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال

(١) والرسف: مشي المقيد.
(٢) والبراثن: مخالب الأسد.
(٣) مسدف: مظلم من السدفة.
(٤) والشبا والشباة: حد الأسنة.
(٥) البرقاء التي فيها سواد وبياض.
(٦) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك [1]، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلةٍ قتلت ولا أي ميتةٍ مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصفق عجباً، وتعاظمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجراً، وأسمعني نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقاً للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك

(١) سك الله سمعك يقال: استكت الأذنان واصطكت الركبتان.

عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعةٍ ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجلٍ أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدةٍ؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إداً، وأردت أن تبورني، فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبداً أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب؟! [1] والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له

(١) يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب: كانت المراة تستعمل عجم الزبيب لتضيق قبلها في ما ذكر بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحدته عجمة، قال الأعشى:

مقـــادك بالخيـــل أرض العـــدو ::: وجـــذعانها كلقـــيط العجـــم

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذٍ فهو أصلب وأملس، وإنما أراد صلابتها وضمرها، ولقيط أراد ملقوط مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأةً منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزرة وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ خدمه ثماني سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكل بحتفٍ قاضٍ و:{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾} [الأنعام: ٦٧] (١).

وفادة جرير على الحجاج:

عن أبي الذيال السلولي قال حدثني جرير قال: وفدت على الحجاج بن يوسف في سفرةٍ تسمى سفرة الأربعين، فأعطاني أربعين راحلة ورعاءها وحشو حقائبها القطائف والأكسية، كسوةً لعيالي، وأوقرها حنطة ثم خرجت فلما شددت على راحلتي كورها وأنا أريد المضي جائني خادم فقال: أجب الأمير، فرجعت معه، فدخلت على الحجاج، فإذا هو قاعد على كرسي، وإذا جارية قائمة تعممه بعمامة فقلت: السلام عليك أيها الأمير فقال: هات قل في هذه، فقلت: بأبي وأمي تمنعني هيبة الأمير وإجلاله، وأفحمت فما أدري ما أقول، فقال: بل هات قل فيها، فقلت: بأبي وأمي فما اسمها؟ قال: أمامة، فلما أمامة فتح علي فقلت:

ودع أمامة حان منك رحيل ::: إن الوداع لمن تحب قليل
تلك القلوب صواديا تيمتها ::: وأرى الشفاء وما إليه سبيل

فقال: بل إليه سبيل، خذ بيدها فجبذتها (٢) فتعلقت بالعمامة وجبذتها حتى رأيت عنق الحجاج قد صغت ومالت مما جبذتها،

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٣١٧.
(٢) جبنتها وأجبذها بمعنى جذبتها وأجذبها، تقول جبذته أجبذه جبذاً، وجذبته أجذبه جذباً.

وتعلق بالعمامة، قال: ويخطر ببالي بيت من شعر فقلت:

إن كان طبكم [1]الـدلال فإنـه ::: حسن دلالـك يـا أمـيم جميـل

فقال الحجاج: إنه والله ما بها دلال ولكن بها بغض وجهك وهو أهل ذلك، خذها بيدها جرها، فلما سمعت ذلك منه خلت العمامة. وخرجت بها فكنيتها أم حكيم وجعلتها تقوم على ودي لي وعمالي وتعطيهم نفقاتهم بقريةٍ يقال لها الغنية من قرى الوشم حتى نفد الودي. قال طلحة: فأخبرني الزبير قال، قال محمد بن أيوب: وسمعت حجناء ابن نوح يقول: كانت والله مباركةً[2].

سمرة الخارجي والحجاج:

قال الشرقي بن القطامي: كان سمرة بن الجعد من قعد الأزارقة، غير أنه لم يكن يعرف بذلك، وكان قد وقعت له من الحجاج منزلةٌ حتى كان يدخله في سمره، فلما سار قطريّ بن الفجاءة إلى جيرفت كتب إلى سمرة بن الجعد يعيّره مقامه عنهم وركونه إلى الدنيا، وكان في كتابه إليه:

لشتَّان ما بين ابـن جعـدٍ وبيننـا ::: إذا نحن رحنا في الحديـد المظـاهر
نجالـد فرسـان المهلَّـب كلُّنـا ::: صبورٌ على وقع السيوف البـواتر
وراح يجـرُّ الخـزَّ نحـو أميـره ::: أميرٍ بتقـوى ربِّـه غـير آمـر
أبا الجعد أين الحلم والعلم والتقـى ::: وميراث آبـاء كـرام العناصـر
ألم تـر أن المـوت لابـدَّ نـازلٌ ::: ولا بدَّ من بعـثٍ الألى في المقـابر
حفاةً عـراةً والثـواب لـديهم ::: فمن بين ذي ربحٍ وآخـر خاسـر
فسر نحونـا إنَّ الجهـاد غنيمـةٌ ::: تفدك ابتياعاً رابحـاً غـير بـائر

فلما قرأ كتابه لحق بهم وكتب إلى الحجاج:

(١) يعني الخلق والطبع.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٣٤٧.

فمن مبلـغ الحجـاج أنّ سميرةً ::: قلى كلّ دينٍ غير ديـن الخـوارج

قال القاضي: يجوز " كلَّ دين غير " خفضاً ونصباً، الخفض على الصفة لدينٍ والنصب على الصفة لكلّ وعلى الاستثناء.

رأى الناس إلا من رأى مثل رأيهم ::: ملاعين تراًكين قصـد المخـارج

فإنّي امـرؤأي يـا بـن يوسـفٍ ::: ظفرت به لو نلت علم الولائج[1]

إذاً لرأيـت الحـقَّ منـه مخالفـاً ::: لرأيك إذ كنت امرءاً غير فـالج[2]

فأقبلـت نحـو الله بـالله واثقـاً ::: وما كربتي غـير الإلـه بفـارج

إلى قطـريّ في الشـراة معارجـاً ::: ولست إلى غير الشّـراة بعـارج

إلى عصـبةٍ أمـا النـهار فـانهم ::: هم الأسد أسد البأس عند التهايج

وأما إذا ما الليـل جـنَّ فـانهم ::: قيامٌ كـأنواح النسـاء النواشـج

ينـادون بـالتحكيم لله إنهـم ::: رأوا حكم عمروٍ كالرياح الهوائج

وحكم ابن قيسٍ قبل ذاك فأعصموا ::: بحبلٍ شديد الفتل ليس بناهج[3][4]

قوة منطق الحجاج:

عن عوانة قال: خطب الحجاج الناس بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق، تزعمون أنّا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أنَّ الله عزَّ وجل علَّمني اسماً من أسمائه أقهركم به، وأنتم أولياؤه بزعمكم وأنا عدوه، فبيني وبينكم كتاب الله تعالى. قال عز وجلَّ:{ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ}

---

(١) " علم الولائج " أي الدخائل من ولج أي دخل، قال الله عز وجل: ؟؟؟ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً " " التوبة: ١٦ " أي دخلةً يستبطنونها تخالف ما يظهرونه من إيمانهم.

(٢) غير فالج " : أي غير مصيب ظافر فائز قد فلجت حجَّته.

(٣) " ليس بناهج " : أي ليس ببالٍ مخلق، يقال: قد أنهج البرد وغيره من الثياب إذا صار كذلك، كما قال سحيم عبد بني الحسحاس:

وما زال بـردي طيبـاً مـن ثيابهـا ::: إلى الحول حتى أنهج البرد باليـا

(٤) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٢٠.

[هود: ٦٦]، فنحن بقية الصالحين إن كنَّا من ثمود. وقال جلّ وعز:{إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ} [طه: ٦٩]، والله أعدل في حكمه من أن يعلّم عدواً من أعدائه اسماً من أسمائه يهزم به أولياءه. ثم حمي من كثرة كلامه فتحامل على رمَّانة المنبر فحطمها، فجعل الناس يتلاحظون بينهم وهو ينظر إليهم، فقال: يا أعداء الله ما هذا الترامز؟ أنا حديّا الظبي السانح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذَّنب[١]، ثم أمر بذلك العود فأصلح قبل أن ينزل من المنبر[٢].

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك:

قال محمد بن هشام السّعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صارا في الطريق قال الحجاج لمحمد بن الحنفية: لقد بلغني أن اباك كان إ ذا فرغ من القنوت يقول كلاماً حسناً أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفظع لفظكم، وأشدَّ خنزوانتكم، ما تعدُّون الناس إلا عبيداً، ولقد خضتم الفتنة خوضاً وقتلتم المهاجرين والنصار. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت آنفاً، فما ردَّك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتّى ألقاه. فكره الآذان غضب الخليفة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد ابن الحنفية مستأذنٌ

(١) قول الحجاج: " أنا حديّاً الظبي السانح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذنب " فإنه أراد إنَّا لثقتنا بالغلبة والاستعلاء، والإحاطة والاستيلاء، نتحدى ارتفاع الظبي سانحاً، وهو أحمد ما يكون في سرعته ومضائه، والغراب الأبقع في تحذره وذكائه، ومكره وخبثه ودهائه، وذا الذنب من الكواكب فيما ينذر به من عواقب مكروهه وبلائه، فقال الحجاج هذا مختال في غلوائه، ومرهب لمن بين ظهرانيه من أعدائه، والله ذو البأس الشّديد بالمرصاد له ولحزبه وأوليائه.

(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد ردَّه أمرٌ، إيذن له. فلما دخل عليه تحلحل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاماً تكمَّشت له [١]، وذكر أبي بكلام تقمّعت له [٢]، وما أحرت حرفاً، قال: فما قال لك حتّى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنمّا تفقأ في وجهه الرمّان ونخسه شوك، فخبره عمّا سأله عنه، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالحجاج السّاعة. فأتاه في منزله حين خلع ثيابه فحمله حملاً عنيفاً، وانصرف ابن الحنفية. فجاء الحجاج فوقفه بالباب طويلاً ثم قال: إيذن له، فدخل فسلَّم عليه، فقال له عبد الملك:

لا أنعم الله بعمرٍو عينا ::: تحية السُّخط إذا التقينا

يا لكع [٣] وهراوة البقّار [٤]، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير المؤمنين، ما كان إلاّ خيراً، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابرّ، ذكرته وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال: سألته يا أمير المؤمنين عن شيءٍ بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا أعرفه، فعلمت أن ذاك مقتٌ منه لنا ولدولتنا، فأجبته بالذي بلغك. فقال له عبد الملك: أسأت ولؤمت، والله لولا أبوه وابن عمّه لكنّا حيارى ضلاّلاً، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلاّ الله عز وجل وهم، وما أعزَّنا بما ترى إلا رحمهم وريحهم الطيبة، والله لا كلَّمتك كلمةً أبداً، أو تجيئني بالرضا منه،

(١) تكمشت له " أي انقبضت منه، يقال لما تغضَّن وتشنّج من الفاكهة وغيرها قد تكمّش فهو متكمّش.

(٢) ذكر أبي بكلام تقمّعت له " يقال: قد تقمَّع الرجل وانقمع إذا انخزل وانكسر.

(٣) وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لئيم.

(٤) وقوله " " وهراوة البقّار " يعني عصا الراعي التي يذود بها البقر، يريد أنّه لا يصلح إلاّ لأداني الأمور.

وتسلَّ سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغدَّى مع أصحابه، قال: فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسلَّ سخيمتك، وأقسم ألاَّ يكلّمني ابداً حتّى آتيه بالرضى منك، وأنا أحبُّ، برحمك من رسول الله ﷺ، إلاَّ عفوت عمّا كان، وغفرت ذنباً إن كان. فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه وسللت سخيمته وأجاب إلى ما أحبّ وهو أهل ذلك. قال: فأيُّ شيءٍ آخر ما كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنةٌ أعرفها من أخزم، انصرف. فلمّا كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد الملك فقال له: أتاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وما منعني أن أبثه إياه إلا مقتي له فأنّه من بقية ثمود. فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليّم له - كاتباً ودواةً وقرطاساً، قال: فكتب بخطّه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللّهم حاجتي العظمى التي إن قضيتها لم يضرَّني ما منعتني، وإن منعتني لم ينفعني ما أعطيتني. فكّاك الرقاب، فكَّ رقبتي من النار، ربِّ ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم عليَّ، فوعزَّتك ما يحسّن ملكك إحساني، ولا تقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غناي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحدتي في قبري،

ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي[١]. ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك: حسن والله ﷺ[٢].

حسن السياسة وإقامة المملكة:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب[٣].

صدق الله وكذب الشاعر:

وورد على الحجاج بن يوسف سليك بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أرعني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غربك. فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمي، وهدم منزلي وحرمت عطائي. قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

---

(١) وما رواه محمد بن الحنفية من قول أمير المؤمنين عليه السّلام في دعاه: " ها أنا ذا يا ربّ برمّتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمّته، يريدون أخذه كلّه واستوفاه ولم يغادر شيئاً منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمّي الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدّونه بالقدّ إذا أسروه. وأما الرّمة فالحبل البالي كانوا يشدُّون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرّمة: أشعث باقي رمّة التقليد وقيل: إنّما سمّي ذا الرمّة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأمّا الرمّة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمَّ العظم يرمّ وهو رميم، ومنه قول الشاعر:

والنيب إن تعـر مـني رمّـةً خلقـاً ::: بعد المـات فـإني كنـت أثـر

(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٣) المؤلف: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٥/١.

جانيك من يجـني عليـك وقـد ::: تعدي الصحاح مبـارك الجـرب
ولرب مـأخوذ بـذنب عشـيرة ::: ونجا المقـارف صـاحب الـذنب

فقال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} [يوسف: ٧٨]. ؟؟؟قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ". قال الحجاج: علي بيزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه. فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، وابن له منزل، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر(١).

فاهدم بناءه واحلل لواءه:

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم، واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيع بن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصاً بسجستان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله، وولى الضبي عم مسعود بن الخطاب(٢).

وبلغ الحجاج أن قوماً من الأعراب يفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفتكم الفتنة، فلا عن حق تقاتلون، ولا عن منكر تنهون، وإني أهم أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف والتالد، وتدع النساء أيامى، والأبناء يتامى، والديار خراباً.

فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق(٣).

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٨/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٥/١.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٥/١.

أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحد أخف على الحجاج ولا أحب إليه منه[1].

خلفتُه ظَلُوماً غَشُوماً:

قال زيدُ بن عُمر: سمعت طاوسًا يقول: بينما أنا بمكة إذ رُفعتُ إلى الحجّاج بن يوسف، فَثَنَى لي وساداً فجَلستُ، فبينا نحن نتحدّث إذ سمعتُ صوتَ أعرابيّ في الوادي رافعاً صوتَه بالتَّلبية، فقال الحجّاج: عليّ بالمُلبّي، فأُتي به، فقال: ممن الرجل؟ قال: مِن أفناء الناس؛ قال: ليس عن هذا سألتُك، قال: فعمّ سألتَني؟ قال: من أيّ البُلدان أنت؟ قال: من أهل اليمن؛ قال له الحجّاج: فكيف خَلّفت محمدَ بن يوسف، يعني أخاه، وكان عاملَه على اليمَن. قال: خَلّفته جَسيماً خرّاجاً ولاّجا؛ قال: ليس عن هذا سألتُك. قالت: فعمّ سألتني؟ قال: كيف خلّفت سيرتَه في الناس؟ قال: خلفتُه ظَلُوماً غَشُوماً عاصياً للخالق مُطيعاً للمَخْلوق. فازْورَّ من ذلك الحجاج وقال: لما أقدمك على هذا، وقد تعلم مكانه مني؟ فقال له الأعرابي: أفتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله تبارك وتعالى، وأنا وافدٌ بَيْته وقاضٍ دَيْنه ومُصدّق نبيّه ﷺ قال: فوجَم لها الحجّاج! ولم يدر له جواباً حتى خَرج الرجل بلا إذن. قال: طاووس: فتبعتُه حتى أتي المُلتزَم فتعلق بأستار الكعبة، فقال: بك أعوذ، وإليك ألُوذ، فاجعل لي في اللهف إلى جوارك، الرِّضا بضمانك، مندوحةً عن مَنْع الباخلين، وغنى عما في أيدي المُستأثرين. اللهم عُد بِفَرجك القريب، ومَعْروفك القديم، وعادَتك الحَسَنة. قال طاوس: ثم اختفى في الناس فألفيتُه بعَرفات

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٣٤/١.

قائماً على قَدَميه وهو يقول: اللهم إن كنتَ لم تَقْبل حَجِّي ونَصَبي وتَعبي، فلا تَحْرِمني أجر المُصاب على مُصيبته، فلا أعلم مصيبةً أَعْظَمَ ممّن وَرَد حَوْضك وانصرف مَحْروماً من سَعة رَحمتك[1].

ما النعمة؟

وقال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم: ما النعمة؟ قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال: فالصحة، فإني رأيت المريض لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال له: الغنى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. فالشباب، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال: ما أجد مزيداً[2].

سياسة الأبدان بما يصلحها:

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه: صف لي صفةً آخذ بها نفسي ولا أعدوها. قال له: لا تتزوج من النساء إلا شابة، ولا تأكل اللحم إلا فتياً، ولا تأكله حتى تنعم طبخه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام، واشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل، ولا تحبس الغائط ولا البول، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة[3].

مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم:

وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة، وعنده رسول لعبد الملك بن مروان، فقال: ليت أني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتي، فقال له الرسول: أقول، قال: قل قال:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤٢٤/١.
(٢) المصدر السابق، ٤٧٥/٢.
(٣) المصدر السابق، ٧/٣.

كل إنسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت، أو يقع عليه البيت، أو يسقط في بئر، أو يغشى عليه أو يكون شئ لا يعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولاً [1].

ما تقول في التزويج؟

قال الحجاج لابن القرية: ما تقول في التزويج؟ قال: وجدت أسعد الناس في الدنيا، وأقرهم عيناً، وأطيبهم عيشاً، وأبقاهم سروراً، وأرخاهم بالاً، وأشبهم شباباً، من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة، إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة، وإن قتر عليها وجدها قانعة، وإن غاب عنها كانت له حافظة، تجد زوجها أبداً ناعماً، وجارها سالماً، ومملوكها آمناً، وصبيها طاهراً، قد ستر حلمها جهلها، وزين دينها عقلها، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنبها، وكاللؤلؤة التي لم تثقب، والمسكة التي لم تفتق قوامه صوامة ضاحكة بسامة، إن أيسرت شكرت، وإن عسرت صبرت، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه، وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف، يجره في الأرض جراً، فبعلها مشغول، وجارها مقبول، وصبيها مرذول، وقطها مهزول. قال: يا بن القرية، قم الآن فاخطب لي هنداً بنت أسماء، ولا تزد على ثلاث كلمات. فأتاهم، فقال: جئت من عند من تعلمون، والأمير يعطيكم ما تسألون، أفتنكحون أم تدعون؟ قالوا: أنكحنا وغنمنا. فرجع إلى الحجاج، فقال: أصلح الله الأمير، صلاح من رضي عمله، ومد في الخيرات أجله، وبلغ به أمله، جمع الله شملك، وأدام طولك، وأقر عينك، ووقاك حينك، وأعلى كعبك، وذلل صعبك، وحسن حالك على الرفاء والبنين

(١) المحاسن والأضداد، ص ١١٣.

والبنات، والتيسير والبركة، وأسعد السعود وأيمن الجدود، وجعلها الله ودوداً ولوداً، وجمع بينكما على الخير والبركة، فتزوجها الحجاج، ثم إنه دخل ذات يوم عليها، وهي تقول:

وما هند إلا مهرةٌ عربيةٌ ::: سليلة أفراس تجللها بغل
فإن نتجت مهراً كريماً فبالحرى ::: وإن يك أقرافٌ فما أنجب الفحل

فخرج من عندها مغضباً، ودعا ابن القرية، فدفع إليه مائة ألف درهم وقال: أدخل إلى هند وطلقها عني، ولا تزد على كلمتين، وادفع إليها المال، فحمل ابن القرية المال، ودخل عليها فقال: إن الأمير يقول: كنت فبنت، وهذه المائة ألف صداقك. فقالت: يا بن القرية ما سررت به إذ كان، ولا جزعت عليه إذ بان، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها [1].

محاسن مكر النساء:

ذكروا أن الحجاج بن يوسف أرق، ذات ليلة، فبعث إلى ابن القرية، فقال: أرقت، فحدثني حديثاً يقصر على طول ليلي، ولكن من مكر النساء وفعالهن. فقال: أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلاً يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة، كان معروفاً بالنسك والسخاء. وكانت له زوجة يقال لها جميلة، وله صديق من النساك. فاستودعه عمرو ألف دينار، وقال: إن حدثت بي حادثة، ورأيت أهلي محتاجين، فأعطهم هذا المال. فعاش ما عاش، ثم دعي فأجاب، فمكثت جميلة بعده حيناً، ثم ساءت حالها، وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة. فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع، إذ لقيها الناسك صديق عمرو، فقال: فلانة؟ قالت: نعم. قال: حاجتك؟ فأخبرته بسوء الحال، وما اضطرت إليه مولاتها من بيع

(١) المحاسن والأضداد، ص١٦٠ - ١٦١.

خاتمها، فهملت عيناه دموعاً، ثم قال: إن لعمرو قبلي ألف دينار، فأعلمي بذلك صاحبتك. فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة، وهي تقول: رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل. فلما سمعت مولاتها ذلك، سألتها عن القصة، فأخبرتها، فخرت ساجدة، وحمدت ربها، وبعثت بالجارية إلى الناسك، فأقبل الناسك ومعه المال، فلما دخل الدار، كره أن يدفع المال إلى أحد سواها؛ فخرجت، فلما نظر إلى جمالها وكمالها، أخذت مجامع قلبه، وفارقه النهى، وذهب عنه الحياء، وأنشأ يقول:

قد سلبت الجسم والقلب معاً ::: وبريت العظم مما تلحظين
فارددي قلب عميدٍ واقبلي ::: صلة الضعفين مما ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلاً، ثم قالت: ويحك، ألست المعروف بالنسك المنسوب إلى الورع؟ قال: بلى. ولكن نور وجهك سل جسمي، فتداركيني بكلمة تقيمين لها أودي. فهذا مقام اللائذ بك قالت: أيها المرائي المخادع اخرج عني مذموماً مدحوراً. فخرج عنها، وقد هام قلبه، وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقها، فأتت الملك ترفع إليه ظلامتها، فلم تصل إليه، فأتت الحاجب، فشكت إليه، فأعجب بها إعجاباً شديداً، وقالت: إن لوجهك صورة أدفعها عن هذا، ولا يجعل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق؟ فقالت: سوءة لامرأة حرة تميل إلى ريبة. فانصرفت إلى صاحب الشرطة، فأنهت ظلامتها إليه، فأعجب بها وقال: إن حجتك على الناسك لا تقبل إلا بشاهدين عدلين، وأنا مشترٍ خصومتك، إن أنت نزلت عند مسرتي. فانصرفت عنه إلى القاضي، فشكت إليه، فأخذت بقلبه، وكاد القاضي يجن إعجاباً بها، وقال: يا قرة العين إنه لا يزهد في أمثالك، فهل لك في مواصلتي وغناء الدهر؟ فانصرفت، وباتت تحتال في استخراج حقها، فبعثت الجارية إلى نجار، فعمل لها تابوتاً

بثلاثة أبواب، كل منها مفرد؛ ثم بعثت الجارية إلى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح، وإلى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة، وإلى القاضي أن يأتيها إذا تعالى النهار، وإلى الناسك أن يأتيها إذا انتصف النهار. فأتاها الحاجب، فأقبلت عليه تحدثه، فما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية: صاحب الشرطة بالباب، فقالت للحاجب: ليس في البيت ملجأ إلا هذا التابوت، فأدخل أي بيت شئت منه. فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه. ودخل صاحب الشرطة، فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه، فما كان بأسرع من أن قالت الجارية: القاضي بالباب؛ فقال صاحب الشرطة: أين أختبئ؟ فقالت: لا ملجأ إلا هذا التابوت، وفيه بيتان، فادخل أيهما شئت، فدخل، فأقفلت عليه، فلما دخل القاضي، قالت: مرحباً وأهلاً، وأقبلت عليه بالترحيب والتلطيف. فبينا هي كذلك، إذ قالت الجارية: الناسك بالباب، فقال القاضي: ماذا ترين في رده؟ فقالت: مالي إلى رده سبيل. قال: فكيف الحيلة؟ قالت: إني مدخلتك هذا التابوت، ومخاصمته، فاشهد لي بما تسمع، واحكم بيني وبينه بالحق. قال: نعم، فدخل البيت الثالث، فأقفلت عليه. ودخل الناسك، فقالت له: مرحباً بالزائر الجاني، كيف بدا لك في زيارتنا؟ قال: شوقاً إلى رؤيتك، وحنيناً إلى قربك. قالت: فالمال، ما تقول فيه: أشهد الله على نفسك برده، اتبع رأيك... قال: اللهم إنني أشهدك الله لجميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها. فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها، وخرجت مبادرة نحو باب الملك، فأنهت ظلامتها إليه، فأرسل الملك إلى الحاجب، وصاحب الشرطة، والقاضي، فلم يقدر على واحد منهم؛ فقعد لها، وسألها البينة، فقالت: يشهد تابوت عندي فضحك الملك وقال: يحتمل ذلك لجمالك. فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها، وحمل إلى بين يدي الملك، فقامت وضربت بيدها إلى التابوت وقالت: أعطي الله عهداً لتنطقن بالحق،

وتشهدن بما سمعت، أو لأضرمنك ناراً، فإذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على إقرار الناسك لجميلة بألف دينار. فكبر ذلك على الملك، فقالت جميلة: لم أجد في المملكة قوماً أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي، ثم فتحت التابوت وأخرجت ثلاثة النفر، وسألها الملك عن قصتها فأخبرته، وأخذت حقها من الناسك، فقال: الحجاج: لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها. قال: وكان يعقوب بن يحيى المدائني، ويحيى الكاتب، كاتب سهل بن رستم، يتحدثان إلى مهدية، جارية سليمان بن الساحر، فقال يعقوب يوماً ليحيى: أنا أشتهي أن أرى بطن مهدية، فقال يحيى: ما تجعل لي إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه؟ قال: ما شئت قال: برذونك هذا،قال: نعم. قال: فتوثق منه، وأتى مهدية فقال لها: كان لي برذون موافق فاره فنفق، وأنت لو شئت لحملتني على برذون فاره، قالت: أنا أفعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن، قال: أنت قادرة عليه بغير الثمن، قالت: كيف ذلك؟ فأخبرها بالقصة فقالت: قد حملك الله على البرذون، أربحك النظر إلى بطن حسن، فإذا كان غداً فتعال أنت ويعقوب فاجلسا، فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيراً، فإذا فعل ذلك وجئت أنا، فقل: أنت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته، قال: نعم، فلما جاءت مهدية، قال لها: إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت: مثلك يا بن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى، وشقت جيبها إلى أن جاوزت أسفل البطن وهي قائمة، فنظر إلى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتم ابن الساحر، فقام إليها يترضاها ويسكنها، ويعقوب يقول: وابرذوناه فأخذه منه يحيى. وعن المساور قال: كان عندنا بالأهواز رجل متأهل، وكانت له أرض بالبصرة، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين، فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم في الدار؛ وكان يكثر

الانحدار بعد ذلك إلى البصرة، فأنكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره، ثم احتالت وبعثت من أورد خطأً لعم المرأة البصرية، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه توفيت، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت، ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملاح. فلما أتى بالكتاب خرج إليه فدفع الكتاب، ولم يشك أن امرأته البصرية ماتت، فقال لامرأته: اجعلي لي سفرة، قالت: ولم؟ قال: أريد الخروج إلى البصرة، قالت: وكم هذه البصرة؟ قد رابني أمرك، وما أشك أن هنالك لك امرأة، فأنكر ذلك، فقالت: إن كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري، فقال في نفسه: تلك قد ماتت، وليس علي أن أحلف بطلاقها فأرضي هذه، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية، فقالت الأهوازية: يا جارية هات السفرة، فقد أغناه الله عن الخروج، قال: وما ذلك؟ قالت: قد طلقت الفاسقة، وقصت عليه القصة، فعرف مكرها، وأقام [1].

صدق ورب الكعبة:

وعن الوضّاحيّ عن معمر بن وهيب قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أي هذين شئتم يعني أخاه محمد بن مروان أو ابنه عبد الله مكان الحجاج، فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان فأعفاهم منه فساروا إليه من قابل فقتلوه، فقال عبد الملك: صدق ورب الكعبة، وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له[2].

(١) المحاسن والأضداد، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٨/١.

رسولي إليهم كل يوم الشمس:

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه وإسرافه جوادا وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم، وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت [1].

يا سياف اضرب عنقه:

حكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده: وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن حامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج، وقال يا أمير المؤمنين، أنا للعراق قال: ومن أنت لله أبوك، قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك ثم قال: مالي أرى الرؤوس مطرقة، والألسن معتقلة فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق ومطفئي نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٨/١.

قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة. قال: إليك عني وذاك فلست هناك، ثم قال: من للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا بن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط والأزورار والإدناء والأبعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فإن كنت للأعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل، فقال عبد الملك: أنت لها فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق، قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت، فقال: هذا الحجاج قدم أميرا على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي فلما رأى الحجاج

على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال: اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق، حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئا فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم، فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه ونهض قائما، فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤسا أينعت، وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وأني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فإياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال، وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا، فليس منى الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد

أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس، فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته، وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير، إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفتقبله بديلا مني، فقال: نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا ابن صابئ الذي يقول:

هممت ولم افعل وكدت وليتني ::: تركت على عثمان تبكي حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان ﷺ وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ اصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه[1].

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب:

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد: فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية

(١) المستطرف، ١ /١١٩.

وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فإن كنت اردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز و جل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ::: وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإن ترمني غفلة قرشية ::: فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وأن تر مني وثبة أموية ::: فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنن والحوادث جمة ::: فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ::: يقمن به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته ::: ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك أن تعطي الحقوق فإنما ::: النوافل شيء لا يشيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد: فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ::: أذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة ::: تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ::: لقامت عليه بالصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ::: واقص الذي تسري إلي عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطية ::: لرد الذي ضاقت علي مذاهبه

فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ::: ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ::: وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته ::: وما لم ترده اليوم إني مجانبه
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ::: مدى الدهر حتى يرجع الدرحالبه
وإلا فدعني والأمور فإنني ::: شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى فمن يلومني على محبته يا غلام أكتب إليه الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هناك[1].

اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا:

كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الادب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته إضاقة وفاقه فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا أولم يحضرها فلم يلبث أن اتي له بها فقال لها الحجاج يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إلي فاخترت ابن عمي شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت: يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ماشئت قال: هاتي ولا تخفى شيئا قالت: كنت

(١) المستطرف، ١/ ١١٩ - ١٢٠.

للفتى القرشي فاحتاج إلي ثمني فحملني إلى الكوفة فلما قربنا منها دنا مني فوقع علي فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه، ثم أقبل علي وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إلي فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف فضرط ثم غشي عليه فمكث زمانا طويلا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعا منك فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا قالت على ألاَّ تردني إليه قال لك ذلك[1].

ثلاث جوار:

وذكر محمد بن واسع الهيتي أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد: إذا ورد عليك كتابي هذا، وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أبكارا يكون إليهن المنتهي في الجمال وأكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال، وكتب لهم كتبا إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين، فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل قال: وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول

(١) المستطرف، ٤٨٨/١.

فيه بعد الثناء الجميل ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة، وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أني أشتري له ثلاث جوار مولدات أبكارا، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها، فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عيطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذا ها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج ::: كأنما فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية فإنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القدر والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال، كأنها خشف الغزال وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب في الشكر، والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير، إني رجل كبير ضعيف عن السفر ولي ولد ينوب عني افتأذن لي في ذلك؟ قال نعم فتجهزوا وخرجوا ففي بعض مسيرهم نزلوا يوما ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شابا جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول

أمكتوم عيني لا تمل من البكا ::: وقلبي باسهام الأسى يترشق

أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى ::: وقلبي رهين كيف لا أتعشق فأجابته تقول:

لو كان حقا مـا تقـول لزرتنـا ::: ليلا إذا هجعت عيـون الحسـد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه وما هذا الإصفرار الذي بها والانتحال، فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان قال: وإن كذبتم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديدا وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمـير المـؤمنين أتيـت رغمـا ::: وقـد شـدت إلى عنقـي يـديا
مقـرا بـالقبيح وسـوء فعلـي ::: ولست بمـا رميـت بـه بريـا
فان تقتل ففـوق القتـل ذنـبي ::: وان تعفـو فمـن جـود عليـا

فقال عبد الملك: يا فتى، ما حملك على ما صنعت استخفافٌ بنا أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هي لك بما أعددته لها، فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلي والحلل وسار بها فرحا مسرورا إلى نحو أهله حتى إذ كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلا فتعانقا وناما، فلما أصبح الصباح، وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك [1].

(١) المستطرف، ٢ /٤٨٢.

عقيلة نساء العرب:

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا قال: مهلا يا بن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك. قال: بلى والله وبشر منها قال: وفيم ذلك؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها بتفخذ قال وفي هذا عتبت علي يا بن أخي؟ قال: نعم. فقال عبد الله: والله ما أحق الناس ألاَّ يلومني في هذا إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف[1].

(١) المستطرف، ٢ /٣٦٠.

صاحب الشرطة:

وقال الحجاج بن يوسف: دلُّوني على رجل للشرطة، فقيل: أي رجل تريد؟ فقال: أُريد رجلاً دائمَ العبُوس، طويلَ الجلوس، سمينَ الأمانة، أعْجَفَ الخيانة، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف في الشفاعة فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي، فأرسل إليه يستعمله، فقال: لست أَعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدكَ، وأهل بيتكَ، وعيالك وحاشيتك، فقال: يا غلام، ناد: مَنْ طلب إليه حاجة منهم فقد برئت منه الذمّة[1].

ما فعل ربك بك؟

قال بعضهم: رأيت في المنام الحجاج بن يوسف، كأني قلت له: ما فعل ربك بك؟ فقال: قتلني بكل رجل قتلته قتلةً، ثم رأيته بعد ذلك بمدة في النوم، وكأني أقول له: ما فعل بك ربك؟ فقال: أليس قد قلت مرةً يا ابن الفاعله؟ [2].

من يلومني على الحجاج؟ :

كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإنه ينزغ بي شيطان في المنام يقول لي: أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا عبد الملك، قتلت له الرجال، وأخذت له الأموال، وفعلت وفعلت؛ وأعلمته أنه من نزغه في على باطل، وأني من ديني على يقين، وأحببت أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من سري، كما لا يخفى عليه شيء من علانيتي.

فلما ورد كتابه على عبد الملك كتب جوابه بيده: أما بعد فإن الله

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ٣٨١/٢.
(٢) الآبي، نثر الدر، ١٣١/٧.

عز وجل وله الحمد قد وكل بي ملكاً يقول لي في النوم واليقظة: أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا الحجاج فسلطته بسلطان الله عز وجل لك على الأموال فأخذها من غير حلها، وعلى النفوس فقتلها بغير حقها، فإذا قرأت هذه الأحرف فصر إلي والسلام.

فلما ورد كتاب عبد الملك على الحجاج قال لمحمد بن يونس كاتبه: إن عاقبة التكلف مذمومة، أبر لي قلمين لم يكتب بأغلظ من أحدهما ولا بأدق من الآخر، ففعل محمد، فأخذ ذلك القلم الغليظ وكتب به: بسم الله الرحمن الرحيم، لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب بالدقيق: من الحجاج بن يوسف، أما بعد فإن كان قتلي الرجال طاعة لله تعالى ولك سرفاً، وأخذي الأموال طاعة لله ولك تبذيراً، فمرني بأمر آتيه إليه إن شاء الله تعالى.

فلما ورد الكتاب على عبد الملك قال: من يلومني على الحجاج؟ اكتبوا إليه وأقروه على عمله[1].

زوج أسماء بن خارجة الفزاري ابنته هند من الحجاج بن يوسف. فلما كانت ليلة أراد البناء بها قال لها أسماء: يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل. وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق. وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، واعلمي أني القائل لأمك حيث أول: الطويل

خذي العفو مني تستديمي مودتي ::: ولا تغضبي في سورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرك مرة ::: فإنك لا تدرين كيف المغيب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ::: إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب[1]

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١٩٢/١.
(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٨٥/١.

سيد الجن:

قال الحجاج بن يوسف ليحيى بن سعيد بن العاص: بلغني أنك تشبه إبليس في قبح وجهك؛ قال: وما ينكر الأمير أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن؟ (١).

أفسدت علي لعنك الله!

وروي أن الحجاج بن يوسف لما زوج محمد بن الحجاج قال: لأصنعن طعاماً لم يسبقني إليه الأولون ولا يلحقني به الآخرون. فقيل له: لو وجهت إلى المدائن فسألت كيف يصنع كسرى بالطعام فعملت على نحو ذلك. فأرسل إلى بعض من يعلم ذلك، فقال: حين تزوج كسرى هنداً بنت بهرام كتب إلى عماله في الآفاق: ليقدم علي كل رجل منكم وخليفة شرطته، فوافى عنده اثنا عشر ألفاً، فأطعمهم في ثلاثة أيام، كل يوم أربعة آلاف خوان، يقعدون على بسط الديباج المنسوجة بالذهب ووسائد الديباج المنسوجة بالذهب؛ فلما أكلوا أتى كل واحد بمثقال من مسك فغسل به يده، فلما قاموا بعث بتلك الآنية والبسط فقسمت عليهم. فقال الحجاج: أفسدت علي لعنك الله! اذهبوا فاشتروا الجزر فانحروها في مربعات واسط(٢).

إنه أمر لا يؤخر:

لما أكره الحجاج بن يوسف عبد الله بن جعفر على أن يزوجه ابنته استأجله في نقلها سنة. ففكر عبد الله في الانفكاك منه، فألقي في روعه خالد بن يزيد بن معاوية فكتب إليه يعلمه ذلك، وكان الحجاج تزوجها بإذن عبد الملك. فورد على خالد كتابه ليلاً فاستأذن من ساعته على عبد الملك، فقيل له: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمر لا

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٩٣/٢.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٤٦٠/٢.

يؤخر، فأعلم عبد الملك بذلك فأذن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السرى يا أبا هاشم؟ قال: أمر جليل لم آمن أن أؤخره فتحدث علي حادثة فلا أكون قضيت حق بيعتك. قال: وما هو؟ قال: أتعلم أنه كان بين حيين من العداوة ما كان بين آل الزبير وآل أبي سفيان؟ قال: لا، قال: فإن تزوجي إلى آل الزبير حلل ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحب إلي اليوم منهم. قال: فإن ذلك ليكون. قال: فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون وما يقال فيهم، والحجاج من سلطانك بحيث علمت؟ فجزاه خيراً، وكتب إلى الحجاج بعزمه أن يطلقها، فطلقها.

فغدا الناس عليه يعزونه عنها[1].

ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليد بن خلف، أن الحجاج ابن يوسف أوفد مالك بن أسماء بن خارجة إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟ فقال له عبد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالك: آجرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهل بيت أعظم مرزئة واحد على الناس ولا الله أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبد الملك كلامه، فاستعاده، وفضله على أصحابه.

هذا تأويل رؤياي:

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بن الأسود وغيره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلق هند ابنة أسماء، وهند ابنة

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٦/٣.

المهلب ظن أنها تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال هذا تأويل رؤياي من قبل.

أتضحك وقد هلك المحمدان:

عن أبي محمد بن عمرو الثقفي قال: لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فآذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال: الكامل

الآن لمّا كنت أكمل من مشى ::: وأفترّ نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة كلّها ::: وأعنت ذلك بالفعال الصّالح

فقيل له: اتق الله واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأ: ؟؟؟الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأتاه موت محمّد بن يوسف وكان بينهما جمعةٌ، فقال: الطويل

حسبي حياة الله من كلّ ميّتٍ ::: وحسبي بقاء الله من كلّ هالك
إذا ما لقيت الله ربّي مسلماً ::: فإنّ نجاة النّفس فيما هنالك

وجلس الحجاج للمعزين ووضع بين يديه مرآة، وولى الناس ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمدان فأنشأ يقولك الطويل

لئن جزع الحجّاج ما من مصيبةٍ ::: تكون لمحزونٍ أجلّ وأوجعا
من المصطفى والمصطفى من خيارهم ::: جناحيه لمّا فارقاه فودّعا
أخٌ كان أغنى أيمن الأرض كلّها ::: وأغنى أبنه أمر العراقين أجمعا
جناحا عقابٍ فارقاه كلاهما ::: ولو قطّعا من غيره لتضعضعا

سمّيـــا نـــبيّ الله سمّاهمـــا بـــه ::: أبٌ لم يكن عند النّوائب أخضعا[1]

هل أصابك مطر؟

عن عبد الملك بن عمير قال: كنت عند الحجاج بن يوسف فقال لرجل من الشام: هل أصابك مطر؟ فقال: نعم أصابنا مطر أسال الإكام، وأدحض التلاع، وخرق الرجع، فجئتك في مثل مجر الضبع؛ ثم سأل رجلاً من أهل الحجاز: هل أصابك مطر؟ قال: نعم، سقتني الأسمية فغيبت الشفار، وأطفئت النار، وتشكت النساء، وتظالمت المعزى، فاحتلبت الدرة بالجرة؛ ثم سأل رجلاً من أهل فارس فقال: نعم، ولا أحسن كما قال هؤلاء! إلا أني لم أزل في ماء وطين حتى وصلت إليك[2].

وصية الحجاج بن يوسف :

عن سيف عن شيخ ثقيف قال في وصية الحجاج: هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: " أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربّنا، وإليك المصير، لا نفرّق بين أحد من خلفاء الله، ولا نتّهم الله في قضائه فيهم، هم لي أولياء، وأنا لهم وليٌّ في الدنيا والآخرة، من اتّهم الله على قضائه فيهم أو نكث عهده أو عصاه، أو خلع عطاء الله الذي ولاّهم فأنا لذلك عدوّ في الدنيا والآخرة، على هذا أحيا، وعليه أموت، وعليه أبعث، وبه أخاصم، وإن صلاة الحجاج ونسكه ومحياه ومماتـه لله رب العـالمين، لا شـريك لـه وبـذلك أمـرت، وأنـا أوّل المسلمين"[1].

(١) المبرد، التعازي والمراثي، ٥١/١.
(٢) ابن دريد، المطر والسحاب، ص٩.
(١) السجستاني، المعمرون والوصايا، ٥٢/١.

انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك!

الأصمعي قال: سمعت عمي يقول: أخبرت إن الحجاج بن يوسف لما فرغ من أمر عبد الله بن الزبير قدم إلى المدينة فلقي شخصاً خارجاً من أهل المدينة، فلما رآه الحجاج قال له: يا شيخ من أهل المدينة أنت؟ قال نعم قال الحجاج من أيهم؟ قال من بني فزارة، قال كيف حال أهل المدينة؟ قال شر حال! قال ومم؟ قال لما لحقهم من البلاء بقتل ابن حواري رسول الله ﷺ، فقال الحجاج ومن قتله؟ قال قتله الفاجر اللعين حجاج بن يوسف عليه لعاين الله وصلبه من قلة المراقبة لله، فقال الحجاج، وقد استشاط غضباً: وإنك يا شيخ ممن أحزنه ذلك واسخطه؟ قال الشيخ أي والله اسخطني ذلك سخط الله على الحجاج وأخزاه! قال الحجاج: أو تعرف الحجاج إن رأيته؟ فقال أي والله إني به لعارف فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضيراً، فكشف الحجاج عن لثامه وقال: لتعلم أنك أيها الشيخ يسيل دمك الساعة، فلما أيقن بالهلاك تحامق وقال هذا والله العجب أما والله يا حجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبي ثور المصروع أصرع في كل شهر خمس مرات وهذا أول جنوني، فقال الحجاج: انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك! (١).

ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً :

قال صعصعة بن صوحان: خرجنا مع الحجاج حاجاً إلى بيت الله الحرام. فبينما نحن في بعض الطريق إذا نحن بصوت أعرابي يلبي بين الغيضة. فلما فرغ من التلبية قال: كلامك اللهم لك، من قال مخلوق هلك، وفي الجحيم قد سلك والجاريات في الفلك، على

(١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ١٢/١.

مجاري من سلك، قد اتبعنا رسلك، ما خاب عبد أملك، أنت له حيث علك فقال الحجاج: تلبية موحد ورب الكعبة. لا يفوتنكم الرجل. فأسرع ما كان حتى أُتي بأعرابي على ناقة برحاء بلحاء. فقال الحجاج: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ وإلى أين تريد؟ قال جئت من الفج العميق. قال من أي الفجاج أنت؟ قال من العراق وأرضها. قال من أي العراق أنت؟ قال من مدينة الحجاج بن يوسف. قال فما سيرته فيكم؟ قال بسيرة فرعون في بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم. قال فهل خلفته ظاعناً أو مقيماً؟ قال بل ظاعناً. قال إلى أين؟ قال: إلى الحج ولن يتقبل الله منه. قال: وهل خلف أحداً بعده؟ قال: نعم أخاه محمداً. قال فما سيرته فيكم؟ قال ظلوم غشوم، واسع البلعوم، عاص مشؤوم. قال له الحجاج هل عرفتني؟ قال الأعرابي اللهم لا. قال الحجاج: أنا الحجاج ابن يوسف. قال الأعرابي: أشر والله ممن أظلت الخضراء. وأقلت الغبراء. ويشرب من الماء بغيض مبغوض. لعين ملعون. في الدنيا والآخرة. فقال الحجاج: والله يا أعرابي لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك. قال الأعرابي إن لي رباً يخلصني وينجيني منك. قال يا أعرابي إني سائلك؟ قال إذاً والله أُخبرك. فقال أتحسن من القرآن شيئاً؟ قال نعم. قال فأسمعنا. فاستفتح وقال: بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً. قال ليس هكذا يا أعرابي. قال: وكيف؟ قال: يدخلون في دين أفواجاً. فقال الأعرابي: قد كان ذلك قبل أن يتولى الحجاج. فلما ولي جاؤوا يخرجون من دين الله. فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه. ثم قال: ما تقول في محمد رسول الله ﷺ؟ قال: وما عسى أن أقول في محمد ﷺ صاحب

القضيب والناقة والحوض والشفاعة وزمزم والسقاية، ومن قرن الله اسمه باسمه. يدعى في كل يوم وليلة عشر مرات في الأذان والإقامة. قال فما تقول في أبي بكر الصديق ﷺ. قال: وما عسى أن أقول في صديق في السماء وصديق في الأرض وصاحبه في الغار، وأسلم وهو يملك ثمانين ألف دينار أنفقها في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ. ومع ذلك يا حجاج يوم قرأ النبي ﷺ :{وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} [التوبة: ٤١]. وقال عليه السلام: «**سمعتم ما قال ربكم تبارك وتعالى إلا من كان عنده شيء فليأتني بما أمكنه**» فقام أبو بكر الصديق ﷺ فأتى بجميع ما عنده. وقام عمر ﷺ، فأتى بنصف ما عنده. وقام عثمان ﷺ وأتى بثلث ما عنده. فقالوا: خذ يا رسول الله. ولله عندنا المزيد. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: يا رسول الله، إن ربك العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك: اقرأ أبا بكر مني السلام وقل له أنا راض عنه، فهل هو راض عني؟ فأخبر النبي ﷺ أبا بكر ﷺ. فبكى أبو بكر بكاءً شديداً، وقال يا رسول الله: أنا راض راض فوعد الله أن يرضيه وذلك قوله تعالى: {وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥} [الضحى: ٥]. قال الحجاج: فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال وما عسى أن أقول في فاروق السماء وفاروق الأرض. فرق بين الحق والباطل على لسانه. وإذا كان يوم القيامة يأتي الحق والإسلام ويتعلقان فيه فيجزع عمر ﷺ منهما فيقولان له: لا تجزع، فنحن الحق والإسلام اللذان كنت تقوم بنا في الدنيا. ومن ذلك يا حجاج إن رسول الله ﷺ كان عند حفصة فدخلت عليه صفية فقال لها: لا تخبري عائشة فخرجت وأخبرت أُم سلمة. فأخبرت أُم سلمة عائشة رضي الله تعالى عنهن. فتظاهر عليه أزواجه فجاءهن عمر مغضباً فقال لهن: لم

تتظاهرن على رسول الله ﷺ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً. فنزلت الآية كذلك موافقةً لقول عمر ﷺ. قال الحجاج: فما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال الأعرابي: وما عسى أن أقول في حافر بئر أرومة. ومجهز جيش الفطرة. ومن سبح في كفه الحصى. واستحيت منه ملائكة السماء. ومن ذلك يا حجاج يوم دخل على رسول الله ﷺ وكان جالساً على الأيسر، وركبته مكشوفة. فدخل أبو بكر والنبي عليه الصلاة والسلام على حاله. فلما استؤذن لعثمان بادر له وغطى ركبته فدخل عثمان ﷺ وجلس جلسة المريض يمزحه فنظر أبو بكر إلى عمر وعمر إلى أبي بكر. فقالا يا رسول الله تغطيت من عثمان وعثمان صهرك ونحن أصهارك. فقال النبي ﷺ :«**ألا أتغطى وأستحي ممن تستحي منه الملائكة؟**» فقال الحجاج: ما تقول في حق علي ابن أبي طالب؟ قال الأعرابي: وما عسى أن أقول في ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته البتول. ومن قال له رسول الله ﷺ:«**يا علي إن الله ألف بين روحي وروحك وكان عرشه على الماء وزوجك فاطمة واختارك لها من قبل أن يخلق الدنيا بألف عام**». فقال الحجاج: فما تقول في الحسن والحسين؟ قال الأعرابي وما عسى أن أقول فيمن ولدتهما البتول، ورباهما الرسول وراعاهما جبرائيل فهل لهما مثل وعديل؟ فقال الحجاج: فما تقول في معاوية؟ قال: وما عسى أن أقول في خال المؤمنين وكاتب وحي رسول رب العالمين ورديف رسول الله ﷺ على بغلته دلدل فقال له النبي ﷺ :«**ما يليني منك يا معاوية؟**» فقال: بطني يا رسول الله. فقال النبي عليه الصلاة والسلام:«**ملأه الله علماً وحلماً**». فقال الحجاج: ما تقول في يزيد بن معاوية؟ قال الأعرابي كما قال من هو خير مني لمن هو شر منك. قال الحجاج ومن هو

خير منك وشر مني؟ فقال الأعرابي موسى عليه السلام خير مني، وفرعون شر منك. قال الحجاج فما قال فرعون لموسى؟ قال:؟؟؟ قال فما بال القرون الأولى؟ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. فقال الحجاج: فما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال الأعرابي: ذلك والله أخطأ خطيئة ملأت بين السماء والأرض. فقال الحجاج وكيف ذلك؟ قال الأعرابي: ولاك على أمور المسلمين تحكم في أموالهم ودمائهم بجور وظلم. قال فعند ذلك هم الحجاج بالسيف وأشار إلى سيافه ليضرب عنق الأعرابي. قال فحرك الأعرابي شفتيه. فخر السيف ناحيةً، والسياف ناحية. وولى الأعرابي ذاهباً. فقال الحجاج: بحق معبودك ألا أخبرتني بأي دعاء دعوت؟ فقال الأعرابي: بدعاء إن علمتك إياه غفر الله لك ما عليك من حسابهم من شيء. وما من حسابك عليهم من شيء. ثم قال الأعرابي يا حجاج! قلت: اللهم! يا رب الأرباب. ويا معتق الرقاب. ويا هازم الأحزاب. ويا منشئ السحاب. ويا منزل الكتاب. ويا رازق من تشاء بغير حساب. يا ملك، ويا تواب. يا راد موسى إلى أُمه. ويوسف إلى أبيه. أسألك أن ترزقني وتكفيني شره إنك على كل شيء قدير[1].

انتحل الشر بحذافيره:

وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه فتلكأ وأبى أن يخبره فأقسم عليه ألا بد فقال: حسود كنود لجوج حقود، فقال: عبد الملك، ما في إبليس شر من هذه الخصال، فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال: لقد انتحل الشر بحذافيره ومرق من جميع خلال الخير بأسره وتأنق في ذم نفسه وتجرد في الدلالة على لؤم طبعه

(١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ٦١ - ٦٢.

وأفرط في إقامة الحجة على كفره وخرج من الخلال الموجبة لرضا ربه وقال أبو تمام

مساوٍ لو قسمن على الغواني ::: لما أمهرن إلا بالطلاق[1]

لا تعرف فضيلة الشعر:

ولما قدم الحجاج بن يوسف العراق جفا الشعراء جفاء اتصل خبره بعبد الملك بن مروان فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك الى الحجاج بن يوسف، أما بعد: فقد بلغني عنك أمر كذب فراستي فيك، وأخلف ظني عندك، وهو إعراضك عن الشعر والشعراء؛ فإنك لا تعرف فضيلة الشعر ولا تعلم مواضع كلام الشعراء ومواقع سهامهم، أو ما علمت يا أخا ثقيف أن بالشعر بقاء الذكر ونماء الفخر، وأن الشعراء طرز المملكة، وحلي الدولة، وعناوين النعمة، وتمائم المجد، ودلائل الكرم، وأنهم يحضون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وأنهم سنوا سبيل المكارم لطلابها ودلوا بغاة المحامد على أبوابها، وأن الإحسان إليهم كرم، والإعراض عنهم لؤم وندم، فاستدرك فارط تفريطك، وامح بصوابك وحي أغاليطك[2].

أجن مرتين من الشهر:

خرج الحجاج بن يوسف متصيداً، فلقي أعرابياً فقال: كيف سيرة الحجاج فيكم؟ قال: ظلوم غشوم لا حياه الله ولا بياه، قال له: فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ فقال الأعرابي: هو والله أظلم منه وأغشم، فعليه لعنة الله. فأغضب ذلك الحجاج وقال له: أما تدري من أنا؟ قال: وما عسيت أن تكون؟ قال: أنا الحجاج فقال

(١) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٢٦/١.
(٢) المظفر بن الفضل، نضرة الاغريض في نصرة القريض، ص٦٥.

الأعرابي: وتدري من أنا؟ قال: لا، من أنت؟ قال مولى بني أبي ثور أجن مرتين من الشهر وهذه إحداهما، فضحك الحجاج وانصرف عنه[١].

من كلامه:

- العفو عن المقر لا عن المصر.
- سلطان تخافه الرعية خير لهم من سلطان يخافهم.
- جور السلطان خير من ضعفه. لأن ذلك يختص وهذا يعم.
- رب حق أخرج من باطل.
- مثل الكوفة كامرأة حسناء فقيرة تخطب لجمالها ومثل البصرة كعجوز شوهأ غنية تخطب لمالها [٢].

- خير المعروف ما أنعشت به الكرام[٣].

- قال الحجاج بن يوسف لابن القرِّية: ما زالت الحكماء تَكْرَه المُزَاح، وتَنْهى عنه، فقال: المُزاح من أدْنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب: المُزاح أوله فَرَح، وآخره تَرَح. المزاح نقائض السفهاء، كالشعْرِ نقائض الشعراء. والمزاح يُوغِر صدْرَ الصديق، وينفَر الرفيق. والمزاح يُبْدي السرائر؛ لأنه يظهر المَعَاير. والمزاح يُسْقطُ المروءة، ويُبْدِي الخنى. لم يجُرَ المزح خيراً، وكثيراً ما جَرَ شرًا. الغالب بالمزاح وَاتِر، والمغلوب به ثائر. والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحربَ كبيرُه، وليس بعد الحرب إلاّ عفوٌ بعد قدرة.

فقال الحجاج: حسبك، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة [١].

---

(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٦٩.
(٢) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٦٩.
(٣) المؤلف: ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٦٤/١.
(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ٤٢٥/١.

- الشيب نذير الآخرة [1].

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

- خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ :

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم على الله أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة

- خطبته بعد قتل ابن الزبير :

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثما فحط اللثام عنه ثم قال موج ليل التطم وانجلى بضوء صبحه يأهل الحجاز كيف رأيتموني ألم أكشف ظلمة الجور وطخية الباطل بنور الحق والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق وعطفة رحم ووصل قرابة فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار ثم نزل وهو يقول

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ::: وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا [1]

- خطبته حين ولي العراق سنة ٧٥هـ :

حدث عبد الملك بن عمير الليثي قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٢٨١/٢.
(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٨٧.

منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ::: متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال، يأهل الكوفة: أما والله إني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله وإني لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم ::: قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ::: ولا بجزار على ظهر وضم

ثم قال:

قد لفها الليل بعصلبي ::: أروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي

ثم قال:

قد شمرت عن ساقها فشدوا ::: وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد ::: مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

إني والله يأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوي الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى وإن أمير

المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروءة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك.

أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله وهدمت منزله [1]

خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق :

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر فسمع تكبيرا في السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إني سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمذاني

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ::: فهل أنا في ذايا لهمدان ظالم

(١) جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

متى تجمع القلب الذكي وصارما ::: وأنفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر [١].

- خطبته وقد قدم البصرة :

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم، فقال: أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لبيه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه [٢]

- خطبته بعد وقعة دير الجماجم :

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضي إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر

(١) جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٩٢.

وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله يأهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات والزوات بعد النزوات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه يأهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره يأهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشأم وهم حول المنبر فقال: يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب يأهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء [1].

- **خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشأم :**

وخطب فقال يأهل الكوفة إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى وتحصد بالسيف أما والله إن أبغضتموني لا تضروني وإن أحببتموني لا تنفعوني وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالى (ولا يفلح الساحر) وقد أفلحت

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٣.

وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ثم التفت إلى أهل الشأم فقال لأزواجكم أطيب من المسك ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذبيان إذا

حاولت في أسد فجورا ::: فإني لست منك ولست مني
هم درعي التي استلأمت فيها ::: إلى يوم النسار وهم مجني

ثم قال بل أنتم يأهل الشأم كما قال الله سبحانه:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ثم نزل [1].

- خطبة له بالبصرة :

وخطب بالبصرة فقال قال الله تعالى:{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، فهذه لله وفيها مثوبة وقال:{وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ} [التغابن: ١٦]، وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد فأخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا عذيرى من أهل هذه الحميراء يرمي أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول: يكون إلى أن يقع هذا خير والله لأجعلنهم كالرسم الدائر وكالأمس الغابر عذيرى من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب أما والله لو أدركته لضربت عنقه يعني عبد الله بن مسعود عذيرى من سليمان ابن داود يقول لربه:{رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ} [ص: ٣٥]، كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلا[1].

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٤.
(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٥.

- خطبة أخرى له بالبصرة :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله كفانا مؤنة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أمرتم إن العلم يوشك أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دبرا ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وأستغفر الله لي ولكم [1].

- خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهة :

وخطب أهل العراق، فقال: يأهل العراق، إني لم أجد دواء أدوي لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب راحة، وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم إلا كارهين لمقالتي، وأنا والله لرؤيتكم أكره ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر إليكم والله أسأل حسن العون عليكم ثم نزل.

- خطبة أخرى :

وخطب أهل العراق، فقال: يأهل العراق، بلغني أنكم تروون عن

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٦.

نبيكم أنه قال:«من ملك على عشر رقاب من المسلمين جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور»، وايم الله إني لأحب إلى أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا [1].

- خطبته لما مات عبد الملك بن مروان :

ولما مات عبد الملك بن مروان قام فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى نعي نبيكم إلى نفسه فقال:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾} [الزمر: ٣٠]، وقال:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: ١٤٤]، فمات رسول الله ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون منهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر الذي جربته الأمور وأحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة واللين لأهل الحق والوطء لأهل الزيغ فكان رابعا من الولاة المهديين الراشدين فاختار الله له ما عنده وألحقه بهم وعهد إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته فاسمعوا له وأطيعوه.

أيها الناس إياكم والزيغ، فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله ورأيتم سيرتي فيكم وعرفت خلافكم وطيبتم على معرفتي بكم ولو علمت أن أحدا أقوى عليكم مني أو أعرف بكم ما وليتكم فإياي وإياكم من تكلم قتلناه ومن سكت مات بدائه غما ثم نزل [1].

خطبته حين أراد الحج :

وأراد الحجاج أن يحج فاستخلف محمدا ولده على أهل العراق

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٦ - ٢٩٧.
(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٨.

ثم خطب فقال: يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمدا هذا وما كنتم له بأهل وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله في الأنصار؛ إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي ألا وإنكم ستقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة ألا وإني معجل لكم الإجابة لا أحسن الله الخلافة عليكم ثم نزل.

- **خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد:**

قال صاحب العقد: فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج فلما كان بالعشى أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه ففرح أهل العراق وقالوا: انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس فقال: أيها الناس محمدان في يوم واحد أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وايم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى والجديد أن يبلي والحي مني ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى:{وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾} [يس: ٥١] ثم تمثل بهذين البيتين:

عزائي نبي الله من كل ميت ::: وحسبي ثواب الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضيا ::: فإن سرور النفس فيما هنالك[1]

- **خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته:**

(١) جمهرة خطب العرب، ٢/ ٢٩٩.

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق، وأرجفوا بموته فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال: إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج ومات الحجاج فمه وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت والله ما يسرني ألا أموت وأن لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس:{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾} [الأعراف: ١٤ - ١٥]، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي} [ص: ٣٥]، فأعطاه ذلك إلا البقاء فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كأني والله بكل حي منكم ميتا وبكل رطب يابسا ونقل في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولا في ذراع عرضا وأكلت الأرض لحمه ومصت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول ثم نزل (١).

خطبه الوعظية :

- وخطب الحجاج يوما، فقال: أيها الناس، قد أصبحتم في أجل منقوص وعمل محفوظ رب دائب مضيع وساع لغيره والموت في أعناقكم والنار بين أيديكم والجنة أمامكم خذوا من أنفسكم لأنفسكم ومن غناكم لفقركم ومما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضي من الدنيا لم يكن وكأن الأموات لم يكونوا أحياء وكل ما ترونه فإنه ذاهب هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التي طلعت على التابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ثم طلعت على قبورهم، أين الملوك الأولون أين الجبابرة

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ / ٣٠٠.

المتكبرون المحاسب الله والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا

فكان الحسن البصري - رحمه الله - يقول ألا تعجبون من هذا الفاجر يرقى عتبات المنبر، فيتكلم بكلام الأنبياء وينزل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله [1].

- وقال مالك بن دينار: غدوت إلى الجمعة فجلست قريبا من المنبر فصعد الحجاج، ثم قال: امرؤ حاسب نفسه امرؤ راقب ربه امرؤ زور عمله امرؤ فكر فيما يقرؤه غدا في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرا امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننتقل من دار إلى دار.

- وخطب يوما فقال: أيها الناس، اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأعصى شيء إذا سئلت فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وعطفها بزمامها عن مصية الله فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله[1].

- وخطب، فقال: اللهم أرني الغيَّ غيًّا فأجتنبه، وأرني الهدى هدى فأتبعه، ولا تكلني إلي نفسي فأضل ضلالا بعيدا والله ما أحب أن ما مضي من الدنيا لي بعمامتي هذه ولما بقي منها أشبه بما مضى

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣٠١.
(١) المصدر السابق، ٢ /٣٠٢.

من الماء بالماء [١].

- ومن كلامه: إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة وأقهروا طول الأمل بقصر الأجل [٢].

* * *

(١) المصدر السابق،٢ /٣٠٣.
(٢) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٠٣.

obeikandl.com